دياسبورا

رواية

عمرو عبداللطيف ياسين

لكل انسان قصة تستحق ان تروى

obeikandl.com

الفصل الأول

(١)

لم يعد مهماً كيف يقضي المرء أيامه حين يفقد كل شيء. صحيح أن اليأس يحتاج إلى جرأة ولكني أدرك أنه يمكن أن يتخلى الجميع في حالة يأس عن كل شيء إلا هي. أراها كل يوم تخرج باحتشام إلى حديقة المنزل وقد زرعت الكثير من الورد. الورد الأحمر والورد الأبيض وتلك الألوان المتعددة التي تفتح البهجة في النفس. إنها تخرج مكتنزة بكامل صبرها وأرى في عينيها ذلك الحزن الذي نراه في عيون الطيور. مع ذلك هي تهتم حتى بزهرة ملكة الليل لتبعث فينا حس البهجة في مساءات المدينة التي أصبحت مليئة بالضغائن والحسرات. هي تربي الورود ولا أظن جدتي تعرف شيئا عن فتاة برنارد شو في مسرحية بيجماليون. الفتاة اليزابث التي أصبح اسمها اليزا ثم تحول إلى ليزا في نهاية المطاف. اليزا فتاة مسرحية سمح لها التحول السحري أو (الماجك ترانسفورميشن) من التحول من بائعة زهور في الأرصفة إلى فتاة ارستقراطية في فترة وجيزة. اليزا حظيت بفرصتها لكنها خسرت الكثير وخضعت لتجريب. التجريب الذي لم يستثنِ حتى لكنتها مصرا على تغييرها إلى اللهجة التي يتقنها الارستقراطيون. لم تعد طريقة الأكل والملبس هما جوهر التحول بل توجب عليها أن تتكلم بلهجة لم تتربَ عليها وأن تتخلى عن هويتها إذا نظرنا إلى اللغة كهوية تميز المرء وتعود به من وقت إلى آخر إلى البيئة التي ترعرع فيها ونمت فيه ذكريات الطفولة. جدتي تعيش في واقع محض وليست أحدى الشخصيات الروائية ليمنحها الكاتب فرصة لتحظى بنهاية سعيدة في الفصل الاخير من الرواية ويتركها بكامل

زهوها ولو حتى في آخر السطور. يبدو أنها تدرك كثيرا معنى الحياة وأنا أدرك تماما الفرق بينها وبين اليزا. اليزا كانت تبيع الزهور لتبحث عن فرصة لوجودها في هذه الحياة ولو على حساب ذاتها بينما جدتي تخوض معركة إيجاد ذات مع الحياة.

عادت جدتي كعادتها من حديقة المنزل وبدأت تستمع بتأني لما أسمع وتتأمل بعمق لارا فابيان وهي تغني جوسوي ملادو. هي لا تفهم ما تقول ولكني أدركت أنها ليست الموسيقى التي جذبتها وإنما صراخ لارا الذي يتدفق من شراييها ليجعلها تقف مسمرة بلا أي حراك. أدركت معنى أن يُترك الطفل وحيدا منتظرا ذلك الأمل الكبير الذي يمنحنا السعادة اللامتناهية. هي تبحث عن وجودها مع ما هو حق لها ولكن جدي ليس بذلك المزاج الذي يجعله يمنحها ما تريده. إنه شخص عشوائي مع أنه غير مقصر معنا جميعا فهو يقضي عمره في الغربة ليمنحنا حياة تليق بنا. هو متعال جدا ولا يسمح لذاته أن تتذلل لأي امرأة مع العلم أنها زوجته وهذا من الواجبات عليه وليس فقط حفنة المال التي يرسلها ولا يمنح تلك العجوز سوى شهرين من عمره في كل سنة.

استطاعت شخصية ايميلي لوليم فوكنر أن تجد طريقها لتنتزع حقها في هذه الحياة وأن تعيش أربعين سنة بجوار جثة هي كل ما استطعت أن تحصل عليه في هذه الحياة. مهما كانت مبررات ايميلي لكن تظل هنالك فروق بين أن نأخذ حقوقنا في هذه الحياة وأن نحرم منها الآخرين. الحصول على سبل العيش الكريمة يحتم علينا أن نحترم ما يريده الآخرون وليس تجاوزها بداعي الحقوق الذاتية. جدتي ليست شخصية خرافية كايميلي لتبحث عن الواقع خارج الواقع فهي تبحث عن حياتها بواقعيه. ولكنها كايملي تدرك أن الوقت ليس له أي اعتبار في حياة المرء عندما لا تمنحنا الحياة حتى المواساة. أصبحت عيناها متحجرتين ولكن قلبها مازال ينبض ببرودة و يتسلل من عينيها ذلك الدفء الذي يمنحني الأمل كلما

نظرت إليها. هي لديها معركتها الواقعية مع الحياة وتبحث عن ما هو حقها بعيدا عن التجاوزات التي يقترفها أبطال الأدب. فهي لا تعرف ماكبث ولا تعرف أنه تخلى عن إنسانيته فقط لكي يصبح ملكا. هنالك تجاوزات في الأدب تعلمنا ماهية التعايش و تفرغ ذلك الكم الهائل من التوجس من ذواتنا ولكن الواقع مليء بكل ما هو إنساني وحميم. أن تبحث امرأة عجوز عن حياتها طوال كل هذه السنين وأن تخوض معركة إنسانية مع الحياة جديرة بالاحترام.

جدتي تشبه إلى حد كبير صوفي في رواية قلعة هاول المتحركة. تحولت صوفي إلى امرأة عجوز وهي في بداية عشرينياتها. تراها كامرأة ترهل وجهها كاملا ولكن قلبها مازال ذلك القلب الباحث عن الحياة في هذا العالم المترامي الاطراف والمليء بالمآسي. قلبها مازال ينبض بعنفوان الشباب ومازال لديه الكثير من الفرح والكثير من الحزن في مستقبل لا تدرك تفاصيله. صوفي شخصية روائية وعادت في نهاية المطاف إلى حياتها الطبيعية ولكن ماذا عن جدتي. هذه المرأة الواقعية التي هي فعلا وجهها مترهل وقلبها ينبض بالحياة في حياة رجل عبثي لا يكترث لها ولم يمنح شريكة حياته الدفء الكافي لتحظى ببعض الرضى. جدتي ليس لديها كاتب ليمنحها ما يرضيها فكل ما تملكه هو حديقة المنزل لتزرع الورد و تعطيها لجدي كلما عاد من الغربة و تمنحه رائحة زهرة ملكة الليل التي تفوح لتمنحنا الأمل كل يوم.

هي تدرك أن هذا الرجل لا يأبه لشيء ولكنها لا زالت تعطيه تلك الورود كلما عاد إليها وهو بدوره يضحك متخليا عن كل ذلك الدفء الذي يتدفق من قلب امرأة عجوز لا تريد شيئا سوى الحنين. تولستوي غير موجود ليمنحها ما منح آنا كرنينا من تلك الخيارات المتعددة والخارجة عن الأعراف. عاشت آنا في خيارين بين البقاء مع زوجها الذي يمنحها

الرضى والطمأنينة وبين أن تتخلى عن كل حياتها الواقعية وتعيش حياة متعة على حساب ما هو واقعي. كانت آنا تعيش لياليها الحمر مع عشيقها وهي تدرك أن الجميع يعرف ويرفض ذلك. هل هذا ضرب من الحداثة أم هو خروج عن الواقع ومالاته والذي لن يؤدى إلى شيء سوى الحسرة في نهاية المطاف؟! هنالك بحث عن الحداثة وهنالك واقع وسيكون الواقع هو الطريق الذي نسلكه في حياتنا. هي واقعية لأنها تدرك أن معركتها مع الحياة ليست سوى معركة مع الواقع ولو انحازت إلى غير ذلك فستفقد كل شيء.

الجميع يخوضون في تجارب البحث عن الحياة ويبحثون عن ذلك القصور الذي يفتقدونه ولكن ما يتعلق بروحك وملئ تلك المساحات الشاسعة في القلب تظل لها الأولية. فليست الحياة فيما يمتلكه المرء بل الحياة في الرضى الذي يحتل ذواتنا والطمأنينة والسلام التي تتخلل أيامنا. ماكبث لم يكن منطقيا وخسر كل شيء. صحيح أن شكسبير أضفى على نهايته نوعا من الشجاعة في نهاية المطاف ولكن الجشع في الأشياء الغير أساسية في الحياة مازال هو القادح في حياة ماكبث الذي بدأت حياته تنحدر بعد نبوءة العرافة. بنى حياته على كذبة وفقد معها كل شيء حتى الوجاهة ولم يعد ماكبث ذلك الشهم المقدام الجدير بالثناء. على النقيض تماما يقف أحدب نوتردام الذي لا يمتلك أي شيء في حياته سوى طيبة قلبه. لم يكن يسعى لأي شيء بقدر مجاراة الحياة ببساطة ومصداقية. كان ذلك البؤس يرزح بين عينيه ولكن قلبه يتحرك باطمئنان تام. قضى حياته بعيدا عن الضوضاء والاحقاد ليبقى قلبه ماسة يزداد بريقها يوما بعد يوم. لم يظلمه الناس في نهاية المطاف لأن القيم الإنسانية هي كل ما يمتلكه في هذه الحياة. كان يفتقر للنفوذ وللقوة على عكس ما كبث وهذا يثبت فك الارتباط بين ما يمتلكه المرء وبين قيمه الإنسانية. أصبح أحدب نوتردام بطلا في نهاية المطاف وسيظل تلك الشخصية التي تمدنا بكل القيم الإنسانية التي يجب أن تكون هي المحور لحياة الإنسان.

جدتي لا تعرف ماكبث ولا تعرف أن اسم ليزا كان في الاساس هو اليزابث وتحول إلى اليزا ثم بعدها إلى ليزا ليدل على التحول السحري في حياتها وأن هذا الفقدان لأجزاء الاسم ليس سوى فقدان لهويتها. هي أيضا لا تعرف صوفي التي تشترك معها في القلب النابض بالحياة ولا تريد أن تعرف عن ايميلي ولا تعي شيئا عن أحدب نوتردام الذي تقاسمه كل القيم الإنسانية من البساطة والكرم والشهامة. هي فقط تعيش حياتها بكامل واقعيتها و تبحث عن حقوقها بثقة استثنائية ولم ترضخ إلى ما يسمى بالأمر الواقع.

obeikandl.com

(٢)

في الوقت التي كانت تعيش فيه جدتي باحثة عن الحياة كان جدي مغتربا يبحث عن سبل الحياة الكريمة ويحاول أن يجعل كل من حولة يشعر بالرضى. رفض جدي كل محاولات أحفاده للسفر ليبقيهم في دراستهم الجامعية حتى يتمكنوا من الحياة بشكل لائق فهو يدرك أن مجريات الحياة تغيرت وأصبح التعليم هو السبيل الأقصر للحياة الكريمة بنظره.

نحن نعيش في المدينة ولكن عندما يكون جدي متواجدا فهذا يعني أن نصلي صلاة الجمعة في القرية ونتناول غدائنا هناك عند أحد الأقارب ليقضي وقته مع أصدقائه القدامى فهو يحتل مكانة خاصة عند الجميع. جدي شخصية مفوهة وفكاهية يتماشى مع الجميع ويستطيع أن يزرع البسمة في قلوب من هم حوله. لم أكن أدرك ارتباطه الوثيق بالقرية حتى وقت قريب. هنالك الكثير يجول في خاطره و تراه لحظة يترنح ولحظة أخرى يبتسم.

حكاية جدي مع القرية هي حكاية هوية وذاكرة مكان تختلف تفاصيله. عندما يعود إلى القرية وكأنه يزور مملكة النور ويحظى بضوء (نجمة ارنديل) ليكون أنيسه في الليالي المظلمة كما في رواية ملك الخواتم لأن ذاكرته تتشبع حتى يشعر بالرضى فهو لا يعود إلى القرية إلا بعد أن يتذكر تفاصيل زمنه الجميل هناك. المسجد الذي يتواجد في قريتنا بناه أجداد جدي وهو المسجد الذي يصلي فيه جميع الناس الذين يقطنون القرى المجاورة. يسافر الناس من قراهم ويقضون ساعات من المشي حتى يصلون إلى هذا المسجد وهنا

بدأت أدرك لماذا هذا المسجد بالذات يحتل مكانة خاصة في ذاكرة جدي. يخبرني الجميع أنهم لا يصلون الجمعة إلا في هذا المسجد ولا يفطرون في رمضان إلا بعد أن يصدر الأذآن من هذا المسجد المتربع على التلة كشيخ عجوز وأب روحي يبث الطمأنينة في كل المنطقة. الدار الذي كان يقطن فيه جدي مازال هو الأهم في ذاكرته. يخبرني جدي أن الناس كانوا يجيئون الى القرية ليؤدوا صلاة الجمعة وهذا كان يعتبر سوقا جيدا للباعة. كان الباعة يجيئون من كل حدب وصوب ليبيعوا سلعهم مقابل نقود أو مقابل الحبوب والتي كانت أيضا متاحة للتعامل. بعد أن يرحل الجميع يتجه كل الباعة إلى بيت جدي ليتركوا ما بقي معهم من سلع و يأخذون مقابلها ما طاب لهم من الحبوب. لم يكن أحد يغادر بيت جدي إلا وهو راض و لا يغادر أحد القرية إلا وهو يشعر بالارتياح حتى الباعة.

منزل جدي أصبح مهجورا الآن ويقطن فيه أناس غرباء يبنون ذكرياتهم على أنقاض مجد ذلك الدار الشامخ. الآن أدركت ما يقصده محمود درويش عندما قال:

لماذا تركت الحصان وحيدا؟

لكي يؤنس البيت، يا ولدي،

فالبيوت تموت إذا غاب سكانها.

بدأت الآن أدرك لماذا هذا المكان يحتل حيزا كبيرا في حياة جدي، فهو الذاكرة الحية التي تجعله يمط شفتيه مقهقها على أبسط الأشياء. الذكريات هي هوية المرء وهي ما يبني عليه المرء حياته. تحاول جدتي التماسك والبحث عن حياتها كما تريد ويريد جدي البحث أيضا عن هويته التي يشعر أنها بدأت تتناثر كقطع الفلين. لكل منهما أسبابه الوجيهة في البحث عن الحياة. ستظل مدينة ماكوندوا هي الرمز الأقوى لعائلة بوينديا. كل ما كان يريده بوينديا هو مكان يقيم فيه حياته وأسس مدينة ماكوندو والتي هي المحور الأساسي

لكل ما سيقال عن هذه الأسرة. لو لم تكن هنالك ماكوندوا لما قرأنا عن العقيد اورليانوا أو عن جوزيه اركاديوا بوينديا أو عن اورسولا. تلك العجوز التي استطاعت أن تعيش أكثر من خمس عشرة سنة ولا يعرف أحد شيئا عن أصابتها بالعمى. إنها ذاكرة المكان التي منحتها تلك الحياة دون أي تذمر وهو المكان الذي أعطاها فرصة للعيش كبصير دون أن تعاني من أي تعب بل على العكس كان السلام هو رفيقها الدائم في أنحاء منزلها.

أعيش حياتي مع جدي وجدتي وبدأت مؤخرا أدرك ما هي الحياة وكيف يبحث كل شخص عن حياته رغم كبر سنهم. جدتي لا زال يلمع في عينيها تلك الفرحة التي يمكن أن تحظى بها في نهاية المطاف وجدي يبحث عن حياته في ركام هذه الدنيا ويبدو أن الذكريات تمثل الشيء الكثير بالنسبة إليه.

لا زلت أجهل الكثير عن علاقة جدي بالذاكرة المكانية التي تحتلها القرية رغم أن لديه الكثير من المشاكل في عمله. عاد مؤخرا وشعره قد أصبح مكتمل البياض وهو كعادته يعود بعد أن يصبغ شعره بالأسود حتى يبدو أكثر شبابا وحيوية في نظر جدتي. حتى شاربه نصفه أبيض والنصف الآخر مازال تظهر عليه آثار الصبغة السوداء. سمعته يتصل ويتكلم عن تدهور العمل في محله وربما أنه في آخر المطاف سيبحث عن عمل جديد بعد أن قضى معظم عمره بين الكتب. لم يكن عمله في مكتبة مجرد صدفة بل كان عمله ناجم عن حبه للمعرفة فهو الذي يتباهى بمعرفته بالكتب فلا يحضر حديث عن كتاب إلا ويسرد تفاصيله متباهيا بعلاقته الحميمة مع رائحة الكتب والمجلدات التي لا تفارقه. ولا يتكلم أحد عن قصيدة إلا ويسرد بقيتها متحدثا عن جماليات القصيدة ويتباهى بمعرفة الصور الجمالية التي تحملها القصيدة. هو مكتبة بحد ذاته وشغوف بعمله رغم أن عمله لا يدر عليه بالربح الوفير إلا أنه لا يزال متمسكا بالعمل في هذا المجال و يبدو أن شغفه بالكتب لم يدع له مجالا

ليفكر في عمل آخر أكثر ربحا.

كلاهما جدي وجدتي لديهم ذلك الحزن الذي يرواد (ايريكا بين) في فيلم (ذا بريف ون) أو الأشجع. تعرضت ايريكا إلى هجوم من متشردين أحدث لها صدمة خصوصا وأنها فقدت خطيبها على أثر تلك الهجمة. هي مقدمة برامج إذاعية ومولعة بالسرد الأدبي ولكن أن تتحول حياتها إلى مأساة تستحق السرد فهذا لم يكن في الحسبان. ايريكا كرست كل وقتها للانتقام من أولئك المتشردين الذين أحدثوا فجوة في ذاكرتها بينما كان كلبها يحاول أن يدافع عنها بكل ثبات. كلب يقف إلى جانبها في مأسآتها والتي كان سببها مجموعة من البشر في هذا العالم المكتض بالمفاجئات. ما يجعل جدتي مختلفة عن ايريكا هو أنها ليس لديها ما تنتقم منه فهي وجدت أن حياتها لم تتماشَ كما تتمناه وكل ما ترجوه هو أن تجد مساحة كافية في قلب جدي فحسب فهي تحمل قلب ايريكا في بحثها الدؤوب لتستعيد توازنها في الحياة. تريد أن تتخلص من إرث ثقيل من الذكريات التي لم تمنحها أي نوع من الطمأنينة. جدي أيضا ليس لديه ما يمقته فسبب تقهقر عمله هو اتجاه الناس إلى الشبكة العنكبوتية والإنترنت والتي يستطيعون أن يحصلوا من خلالها على الكتب بسهولة ويسر وغالبا ما تكون الكتب متوفرة مجانا. ايريكا كرست جهدها للانتقام بينما جدي وجدتي يسعى كل منهم للوصول إلى هدفه المرجو فبينما كانت جدتي تبحث عن مساحة في قلب جدي، كان جدي متمسكا بعمله حتى يوفر العيش الكريم لبقية أسرته ويظهر تلك الصورة التي يريدها أن تكون في ذاكرة كل أفراد الأسرة. وهنا تظهر أساسيات الحياة في المجتمعات المحافظة والتي ظلت حتى عقود قليلة ماضية هي المسيطرة على الأسرة. جدتي هي ربة المنزل بينما جدي هو الشخص المسئول عن كل متطلبات الحياة.

حتى الدراسة كانت حتى وقت قريب حكرا على الأبناء اما البنات فكن بالكاد يكملن

تعليمهن الثانوي وبعدها يقعدن في البيوت. أمي، مدرّسة مادة التأريخ، هي من القلائل اللاتي أكملن تعليمهن من جيلها. أمي دائما ما تدخل في جدال مع أبي لتظهر نوع من البداهة وتعبر عن الصورة التي تحملها عن نفسها كشخصية مثقفة.

- أمي: إنه من الغلط أن نعتبر الدخل المالي لرب الأسرة هو الأساس الذي تعتمد عليه الأسرة بأكملها ونهمش أهمية الدخل المادي للأم بالنسبة للأسرة.

ثم تعود الى كلامها المعهود الذي مللنا منه.

- أمي: هنالك فروق شاسعة بين مجتمعنا وتلك الدول التي تندرج تحت مسمى الدول المتقدمة والتي لا يكفي فيها دخل الفرد الواحد في الأسرة بل يجب أن تكون المرأة مشاركة في العمل وفي دخل المنزل حتى تعيش الأسرة بدون أي عوز أو احتياجات. هناك العديد من الدول المسلمة اثبتت أن المرأة لها دور كبير في الإطار المجتمعي ولها التمثيل المناسب. فالمرأة كالرجل لها تلك الطموحات التي تكرس لها جل جهدها حتى تتحقق.

- أبي: عليك أن تعتمدي على نفسك فراتبك لا يكفي حتى احتياجاتك الشخصية. فعلا "الأسوأ من الفقر أن تعيش عالة على الآخرين".

حقيقة هذا لم يكن كلام أبي في السابق وإنما بدأ مؤخرا يرضخ للأمر الواقع تحت ضغوطات أمي المتكررة بأنها يجب أن يكون لديها دخل ودائما تبرر بأن هذا الدخل سيكفيها لتلبية متطلبات المنزل في حال أنه فقد عمله ودائما تضيف بعد هذه الجملة "لا قدر الله". أبي أدرك مؤخرا أن السبب ليس في الدخل المالي وإنما في إيجاد المرء سببا وجيها لحياته يمكن من خلاله أن يكون شيئا ما في المجتمع. فأمي تتباهى عندما تزور أي شخص وترى بعض الطالبات اللاتي درسن على يديها يمتدحنها أمام الغير. وأيضا تشعر أن لها وجود عندما تصحح أوراق الطلاب ويظهر ذلك من خلال لكنتها عندما تنتقد بعض الطالبات

اللاتي لا يكتبن الإجابات بشكل صحيح.

في مجتمعنا لم تعد الأمور كما كانت عليه لأن سن العنوسة لم يعد محصورا بسن الثامنة عشرة تقريبا بل أصبحت المرأة تبحث عن التعليم الجامعي ثم تفكر بعد ذلك بالارتباط ولكن عليها أولا ان تضمن الدخل الذي يؤمن لها حياتها. هنالك نوع من الانفتاح المنظم الذي لا يخرج عن الأطر الاجتماعية والعادات والتقاليد الموجودة في المجتمع.

obeikandl.com

الفصل الثاني

(١)

بعد أن عدنا إلى البيت من رحلة قصيرة اتصل عمي من الولايات المتحدة الأمريكية. هو متواجد هناك منذ ثمانية أعوام ولكنه لم يعد يتصل كثيرا. كان يتصل مرارا عندما كان يحاول أن يقنع جدي وجدتي بأن يسمحوا له بالزواج من فتاة أمريكية. كلما كان يقوله هو أنه أحب تلك الفتاة ويريد الارتباط بها وكان دائما يشدد على كلمة "على سنة الله ورسوله".

جدتي كانت معارضة جدا لسفره للولايات المتحدة وكانت تقول كيف يسافر الى بلاد الكفرة. هي فقط تردد ما يتردد على مسامعها من النساء الاخريات الأميات. هذه هي الفكرة التي كانت في بالها وكانت دائما تقول "سمحنا له يتخاوص، دخل يباوس" في إشارة منها إلى أنها لم تكن موافقة على سفره إلى الولايات المتحدة فما بالك بالزواج والاستقرار هناك. الفكرة السائدة في عقول الأجيال السابقة هي فكرة سلبية بحكم أنهم لا يعرفون أي شيء عن الدول الأخرى ونمط العيش هناك. هم لا يعرفون شيئا عن الديمقراطية وحقوق الإنسان ولا يعرفون أنه يوجد دول متقدمة ودول العالم الثالث وأن أمريكا هذه هي في رأس القائمة التي تضم الدول المتقدمة. جدتي لا تعرف شيئا عن حوار الأديان وعن وجود مسلمين في الدول الأخرى. هكذا تربوا على أحكام مسبقة دون أن يكون لهم أي نوع من التعرف على هوية وثقافة الآخر والتي تختلف في أشياء كثيرة عنا ولكنها تحفظ لكل شخص حقوقه وعاداته وتقاليده وليس هنالك أي نوع من الضغوط

بخصوص الحريات الدينية. أخبرها دائما عن الدعاة وشيوخ المسلمين الذين يسافرون من وقت إلى آخر لإلقاء محاضرات في تلك الدول ولكنها تكرر أنه لا خير في تلك الدول وأنها تخاف أن "يمسخوا" عمي فيتفلت عن دينه. كانت تنظر إلى زواجه من فتاة أمريكية كأنها كارثة وأنه لن يعود بعدها إلى البيت إلا بعد أن يتفلت من كل العادات والتقاليد ويتجاوز كل الأطر الدينية. جدي أيضا بحكم ثقافته كأن يقول أن الأمر جيد أن يدرس المرء في الولايات المتحدة، لكن أن يعيش هناك فهذا ليس بالأمر الجيد. أخبرته أنه سيحظى بحياة كريمة هناك فنحن نعيش على المفارقات بين مجتمعاتنا والتي لا تتجاوز التحدث عن نحن وهم ونحن بعيدون عن ماهية الحياة والنزق الوجودي الموجود في كثير من المجتمعات الأخرى. امرأة تدخل سوبر ماركت وليس لديها سوى عشرة دولارات وتخرج وهي تملك خمسة عشر مليون دولار لأنها فازت باليانصيب. رجل يتجول ولديه موهبة صوت إذاعي ليجد نفسه بين ليلة وضحاها مذيعا في إحدى أشهر المحطات الإذاعية. أناس يروضون الحياة ويعرفون كيف يوفرون سبل العيش ويحتفون بالموهبة في الوقت الذي تغتال فيه الأغاني من حناجر الفن في بلداننا.

أنا أعرف عمي عادل فهو شخص متزن ومعتدل ووسطي في كل شيء. ليس متزمتا ولا منفتحا، بل يعيش بواقعية ويعرف كيف يتعامل مع الأمور بعقلانية. أنا أعتبر عمي عادل هو مثلي الأعلى ويكفي أنه ترك لي كل تلك الكتب حتى أطلع عليها من وقت إلى آخر. كان يقرأ في كل المجالات الدينية والفلسفية والأدبية والاجتماعية والعلمية فهو شخص مجتهد ورصين وعقلاني وهذا لم يتأتَ له إلا لأنه كان يقرأ باستفاضة فهو كما يسميه أصدقاؤه منشار المعرفة!

أنا لا أعرف إذا كان عمي عادل قد تزوج أم لا، لكنه دائما لا يجيب علي حين أسأله عن

الزواج ويخبرني أنه لا يفكر في الأمر حاليا لأن الدراسة تأخذ منه كل جهده فهو يريد أن يكمل الدكتوراه في الطب النفسي. سألته مرة لماذا؟ فقال لي إن مجتمعنا يبدو بخير ولكنه مليء بالأمراض النفسية وهذا ملاحظ من الإقبال الكبير من قبل الناس على حبوب الديزبام وكذلك أنواع أخرى من الأدوية دائما يحدثني عنها. كان يقول دائما إن الناس مازالوا يعتبرون الذهاب إلى الطبيب النفسي عيبا. بينما الأمر طبيعي أن يمر الشخص على طبيب نفسي من اجل الاستشارات وهو الأمر الموجود في جميع المجتمعات.

obeikandl.com

(٢)

جدتي الآن تدعوني من الغرفة ويبدو أنها متعبة وتريدني أن آخذها إلى المستشفى. هي تعاني من انسداد في صمام القلب وقد أجريت لها عملية قسطرة قبل فترة وتحسنت بعدها ولكن التعب يعود إليها من وقت إلى آخر.

إنها الآن تناديني وأنا منهمك في قراءة رواية الحب في زمن الكوليرا وهي لجابرييل جارسيا ماركيز التي تدور حول فلورنتينوا الذي رأى فيرمينيا من نافذة الفيلا فوقع في حبها وهو لا يفكر سوى في الزواج منها. إنه الحب من أول نظرة، وظل فلورنتينوا طوال عمره يمارس أعماله ولكنه يربطها بفرمينيا فعندما عمل ككاتب لقصائد الحب كان يكتب وكأنه يراسل فيرمينيا. لقد أحبّ فرمينيا من أول نظرة وظل ينتظرها أكثر من خمسين سنة حتى مات زوجها وأصبحت أرملة ليتقدم لها بعد ذلك ويحظى بها. كانت حياة فلورينتينو هامشية في ظل غياب فرمينيا وعاد إليها بعد أكثر من خمسين سنة ليعيش حياته كما يريد. جدي كان يعرف جدتي منذ صغرها وقد ترعرعا مع بعض في نفس الحي وعندما تقدم إليها لم يكن زواجا ترتبه العائلة بقدر ما كان زواجا عن حب. هنالك على النقيض جوزيه اركاديو بوينديا الذي تخلى عن خطيبته ليتزوج فتاة أجمل منها وعاش هنالك وحيدا في المقبرة منبوذا من مجتمع ماكوندو. بعيدا عن جوزيه اركاديو بوينديا وفلورينتينوا يظل الواقع هو أساس الحياة التي جمعت بين جدي وجدتي لأن الحياة مليئة بالأحداث ويتخلى المرء عن

الكثير من حياته الخاصة حين يتعلق الأمر بالبحث عن توفير حياة كريمة لكل أفراد الأسرة. فالشخص الوحيد الذي يعتبر جدي مقصرا هو جدتي وهو من الناحية العاطفية فقط أما من الجوانب الأخرى فهو لا يزال الأكثر كرما وشهامة بين الجميع.

يبدو أن جدتي تجهد نفسها كثيرا في التفكير في حياتها وهذا يؤثر على صحتها. أخاف أن تتدهور صحتها وكلنا قلقون عليها لأنها تمثل الوجه الأمثل لكل معاني الأنسانية. عندما أحتاج شيء ما أو إلى بعض النقود فأنا أذهب إليها لأني أعرف أنها كريمة جدا وهي لا تبخل علينا بشيء. جميعنا نلقبها بالأم تيريزا لأنها دائما لا تبخل على أحد بأي شيء. حتى الجيران يلجئون إليها من وقت إلى آخر إذا احتاجوا إلى شيء ما. فهي لا تدع أحدا يحتاج شيئا إلا ولبت له طلبه إذا عرفت ذلك ولكنها بدأت مؤخرا تبدو أكثر حرصا على المال مثلها مثل أي كبير في السن. هي دائما تشارك في الجمعيات التي تعملها نساء الحارة وتأخذ المال وتحتفظ به ولا تمنحنا ما نسألها كاملا كعادتها. أنا أدرك أنها لا تفعل ذلك بسبب البخل وإنما لشيء آخر لست أدركه. جدتي دائما تذكرني بجارتنا التي تعفنت رجلها من القروح وزوجها بدلا من أن يساعدها في مصاريف العلاج قام ببيع الأرضية التي تملكها واشترى له سيارة وبدأ يعيش حياته بعيدا عن مأساة زوجته. جدي ليس كالآخرين حيث يترك زوجته تتعفن من المرض ولا يلقي لها بالاً فهو سيبذل الغالي والنفيس من أجل زوجته التي يحبها. أصبحت جدتي مهووسة بصحتها فهي لا تريد أن تبدو ضعيفة أمام زوجها ولا تريد أن تثقل عليه حتى يشعر بالضجر منها. أنا دائما أخبرها أن جدي يحبها ولكن الحياة أشغلته عنا جميعا ولكنها ترد علي بما مفاده أن الأسرة هي أساس الحياة ومن يتخلى عن أسرته ليس برجل. ولكنها تحب جدي ولذلك فهي تعقب على كلامها بخجل أنه يجب على الرجل أن يحب زوجته كما تحبه هي. هي ما زالت تتحدث عن الحب بعد كل هذه السنين لذلك من الصعب بمكان أن ننتقد فلورينتينوا لأنه انتظر فرمينيا سنين طويلة حتى يتمكن من

استعادة زمنه الجميل.

أتصل عمي عادل وقال إنه يريد أن يعود إلى اليمن ولكنه مازال مرتبطا بدراسته. أخبرته جدتي أنها تريد أن تختار له زوجة جميلة تناسبه فهي تعرف أنه متطلب جدا. ولكن نبرة القلق تظهر على نبرة صوته وهو يخبرها أنه لا يريد أن يتزوج الآن ولا يريد منها أن تتحدث عن زواجه في الوقت الراهن. أخبرها أنه اشترى له روب صلاة ولكنها تفاجأت كيف يشتري ثياب صلاة من أمريكا وهل يوجد هناك ثياب صلاة! ضحكت وأنا أسمعها تتمتم إنه يسخر منها وذلك لأنه يريد أن يشتري لها ثوب صلاة فمن المستحيل أن يحصل هذا. وتعود تتمتم لعله سيشتري لها ثوب صلاة من اليمن ويخبرها أنه من أمريكا. أما أنا فأخبرني أنه اشترى لي آيباد وعدد من الإسوارات الجميلة فضحكت وأخبرته أنه لا يمكنني أن ألبس إسوارات ونحن في اليمن فهذا يعتبر خارج عن العادات والتقاليد على الأقل حتى الآن. وأخبرته كيف أن جدي اشتاط غضبا عندما رآني حلقت رأسي سبايكي وأصر علي أن أعود إلى الحلاق وأن أحلق رأسي كما جرت العادة بعيدا عن هذه الموضات. توجد هنالك نظرة جمعية لبعض الأشياء ولكن الوضع يتغير من وقت إلى آخر فهنالك من يتمردون على بعض وجهات النظر والتي في الحقيقة لا تمس جوهر الحياة في مجتمعاتنا. رغم أن مجتمعاتنا تعتبر من المجتمعات المحافظة إلا أنك ترى من يلبس سلاسلا واسوارات ويتجول بأريحية. ما كان يعتبر مغلوط قبل عدة سنوات أصبح أمرا اعتياديا وما يبدو مخالفا للأطر الاجتماعية في الوقت الحالي سيصبح أيضا أمرا اعتياديا مع مرور الزمن. أصبحت الإيديولوجيا متغيرة مع مرور الوقت بسبب الانفتاح على الآخر ولم نعد نعيش في إيديولوجيا الوضع الراهن.

(٣)

تذكرت عندما كنت في الثانوية العامة حيث كنت كعادتي أجمع النقود ثم اجتمع مع أصدقائي ونسافر إلى عاصمة الثقافة وعاصمة الموضة مدينة تعز فقط لكي نشتري ملابس. كانت تعز هي الوجهة الأولى للشباب لشراء الملابس فهم معروفون بمتابعة الموضة ومتابعة آخر مآلات الازياء. كان معروفا أننا لا نستطيع شراء آخر ما يوجد من ستايلات إلا من تعز وكان ما يظهر في تعز من موضة تنتقل إلينا إلى مدينة إب بعد عدة سنوات. لذلك كنا نختصر المسافة الزمنية ونسافر لجلب تلك الملابس التي نراها راقية ويرى البقية أنها لا تتماشى مع العادات والتقاليد. كانت هنالك فجوة زمنية بيننا وبين مدينة تعز في عالم الأزياء لأن التعزيين يتابعون آخر صيحات الموضة. كان هذا في بداية القرن الواحد والعشرين أما الآن فمدينة إب أصبحت لا تختلف عن تعز في أزياء الشباب والموضة. كان هنالك فجوة زمنية ولكن الإنترنت وثورة التكنولوجيا ألغت المسافة بين الأماكن وأصبحت الموضة تتجول بين جميع المدن ولا يوجد هنالك حاجة إلى السفر إلى مدينة أخرى لشراء الملابس؛ فالشباب قادرون على شراء ما يريدون من أي مكان ولم تعد هنالك فجوة في العادات والتقاليد المتعلقة بالملابس بين مدينتي إب وتعز وأي مدينة أخرى.

الواقع يخبرنا أننا نعيش فيما يسمى بالواقع الافتراضي فلم يعد الثوب والجنبية أو المعوز هو ما يفضله الشباب في اليمن. بل أصبحت القمصان الملونة والجاكتات المختلفة

بالإضافة إلى البنطلونات الزاهية هي المسيطر على حياة الشباب. تعتبر الموضة والتسوق متعة لا تجارى في حياة الشباب. يظل المرء يهتم بمظهره وتظهر أناقة الفرد من خلال قدرته على شراء ما يمكن تنسيقه من الملابس. يبدو أن هذا الشيء ليس جزءا اساسيا في حياة الكثير في العقود الفائتة لكن الأمر مختلف تماما بالنسبة للشباب الآن. حب الموضة أشبه بالإدمان وشراء كل جديد يعتبر متعة لا تساويها أي متعة لدى الشباب. حتى في لبس الزي التقليدي الذي يتمثل بالثوب والجنبية فالشباب أصبحوا يتفننون في تزيين الاثواب وكذلك في لبس الأكوات ذات الألوان الزاهية. على مستوى شغف الشباب بالأزياء فهنالك تقارب كبير في ما يلبسه الشباب وهنالك نزعة عجيبة في تتبع مآلات الموضة. لا يوجد تعريف أنسب للشغف ولا يمكن بأي حال من الحال أن نفسر الشغف ولكن اقتفاء آثار الموضة هو ما يزال صفة من صفات المراهقة. قد يهتم المرء بهندامه ولكن ليس بذلك القدر من الشغف أثناء سن المراهقة. حيث كنت أهتم بهندامي حتى عندما أخرج إلى لعب كرة القدم مع الأصدقاء. كان يجب أن يكون هنالك تناسق في لبسك الرياضي وأنت تجول في الملعب. الكرة أيضا كانت هي الهوس الذي لا يجارى في حياتنا. كم أن الشعور جميل وأنت تحرك الكرة بين قدميك بخفة لتتعب بها الخصم وتنال الثناء من أصدقائك فهم لا يثنون عليك إلا بمضض لأن لا أحد يريد أن يراك أفضل منه. الجميل في الأمر هو أن تحترف مع فريق آخر قريب من حارتك حيث يستيقظون مبكرا ويدقون جرس المنزل ليخبروك أن لديهم مباراة مهمة ويحتاجون إلى مهاراتك للفوز بالمباراة. بعد أن تساهم في الفوز تجري العادة أن تحصل على دعوة لتناول الصبوح في أحد المنازل لتأكل الذمول أو الكعك. كل ذلك الجهد والركض والأهداف التي تحرزها لا تضاهي أن تشعر أنك تكافئ على جهدك بكمية من الكعك مع كاس من حليب الشاي الساخن.

حتى عندما نخرج للعب مباراة مع فريق آخر نعود إلى مطعم حمود الموجود في أقصى

الحارة لناكل الفاصوليا والذي كان حمود عادة ما يعدها بعد أن يلبس الشراب الذي أصبحت رائحته عفنه. وكان الزملاء يطلبون منه بأن يطبخ نفر فاصوليا مع الشبس لكنه كان لا يدرك أن المقصود هو فاصوليا بالجوارب كما كنا نحب أن نسميها فيما بيننا لأن رائحة جواربه أصبحت كريهة بشكل لا يطاق.

مباريات المنتخبات المهمة وكذلك الأندية المرموقة كانت تجمع الشباب من جميع أنحاء المدينة و كان الخوف يملئ قلوبنا من أن تنطفئ الكهرباء ونحن نتابع المباريات وكنا ننتقل من مكان إلى آخر حتى نتمكن من متابعة المباريات. كانت متابعة المباريات والاهتمام بالملابس هي أهم صفات المراهقة ويبدو أن حالة الفراغ الذهني هي التي تحرك الشخص تجاه هذه الاشياء. هي أشياء لحظية وعندما يستمر المرء في حياته تظل هناك أشياء أهم في حياة المرء يتوجب عليه أن ينجزها. عندما تتشبع ذاكرة المرء لا يظل هناك مساحة لمتابعة الموضة أو المباريات كما كان يحدث في فترة المراهقة.

obeikandl.com

الفصل الثالث

(١)

أمتع الأوقات بالنسبة لي كنت أقضيها مع صديقي المشعوذ وليد الذي كان يضحكني بقصصه مع الناس أو(الرعيّة) كما يحب أن يسميهم. وليد يمتاز ببديهيته وكذلك بجرأته وحبه للمغامرة. أكمل الدراسة الجامعية ولم يحصل على عمل. كان جده مشعوذا فقرر أن يصبح مشعوذا حتى يتدبر رزقه كما كان يحب أن يقول. كان الناس يجيئون إليه من كل القرى المجاورة وكان يعطيهم تفاصيل حياتهم قبل أن يبدأ بإعطائهم الأدوية المكونة من الأعشاب والتي كان عادة ما يجمعها من الجبل المجاور لقريته. جاءت إليه عجوز فأخبرها أنها عادت إلى البيت لأنها رفضت المجيئ إليه ولكن زوجها أقنعها بذلك فوافقت على المجيئ إليه في نهاية المطاف. كان يعالج الجميع إلا أولئك الذين يجيئون من قرى بعيدة فأنه يجعلهم في ضيافته لمدة قد تمتد إلى أسبوع قبل أن يقابلهم. كان كريما مع الجميع ويأخذ ما تجود به نفس الذين يزورونه بهدف العلاج.

جاء أحدهم ذات مرة وأراد أن يتأكد من أنه شخص ثقة فسأل عن الاشياء التي يخاف منها فأخبروه أنه يخاف من الثعابين. جاء إليه ومعه ثعبان ضخم فارتعدت فرائص وليد ولكنه أومأ إلى الثعبان بيده فخفض الثعبان رأسه فصاح الجميع وازدادوا يقينا به رغم أنه لم يقصد أي شيء.

كان وليد يمتلك شخصا في كل قرية يتصل له مبكرا ويخبره من سيأتي إليه ويخبره

بأسمائهم ويعطيه بعض المعلومات. عندما يصل المريض إليه يبدأ وليد بإخبار المريض عن نفسه فيطمئن قلب الناس ويثقون به. أما أولئك الذين يأتون من مكان بعيد فكان يضعهم في ضيافته ويكرمهم ويقوم بإرسال شخص إلى قرية المريض ليحصل على بعض المعلومات وكان عذره أنه يريد أن يستدعي الجن. بعد أن يحصل على المعلومات يستدعي المريض ويخبره عن مرضه ثم يقوم بإعطائه بعض الأعشاب التي قد قرأ عنها أنها تنفع لمرضه فيخرج الناس وهم راضين تماما.

أخبرني وليد أن المشكلة تكمن في أن الناس تمسكوا به إلى درجة كبيرة فحاول أن يقنع أهل قريته أنه ليس مشعوذا وأن الشعوذة هي نوع من الدجل إلا أنهم مازالوا متمسكين به. وليد لم يستطع إقناعهم ولم يجد حلا سوى أن يرحل إلى المدينة بعيدا عن ضجة الناس التي تلاحقه في القرية.

وليد هذا كان زميل لعمي عادل أثناء دراسته الثانوية ولم أدرك مدى حبه لعمي عادل إلا عندما تعرض عمي عادل لحادث سير في الولايات المتحدة عندما كان يقود سيارته. عندما اتصل إلينا الناس يخبرونا بحادثة السيارة أخبرونا أن حالته خطيرة جدا فأضلاعه قد تكسرت وهو الآن في حالة حرجه ويتنفس برئة صناعية. كنا قلقين جدا عليه ولا أستطيع أن أنكر أنني كنت لا أنام الليل أحيانا من شدة القلق على صحة عمي. كانت جدتي تبكي طوال الوقت ووقف جدي حائرا أمام الموقف. كنت محتدما على الدوام ووقتها عرفت أيضا إلى أي مدى عمي عادل يعتبر عزيزا علي. بدأ الجميع يحتدم ويجمع المال لأن صحته في وضع حرج. كنت أفكر أن الوضع سيكون كارثي على الأسرة لو أحتاج إلى مبلغ كبير من النقود لأن الوضع المادي للأسرة ليس جيدا إطلاقا خصوصا بعد تدهور عمل جدي الذي كان لا يعرف ما يعمل سواء بخصوص عمله أو بخصوص مرض ابنه. وليد مازال ذلك

الوجه الأمثل للصداقة حيث عرض سيارته للبيع و أراد أن يرسل النقود حتى يساعد عمي عادل على العلاج.

كان الجميع قلقا على صحته لكنه اتصل إلينا بعد فترة وجيزة وأخبرنا أنه قد خرج من العناية المركزة وأنه مازال يحتاج إلى بعض الرعاية. بعدها بفترة خرج من المستشفى معافا تماما وكان يكلمنا وهو يضحك من شدة الفرح. أخبرنا أنه لم يكن يأمل أنه سيعود إلى حالته الطبيعية و لكن الأطباء اهتموا بحالته ليعود إلى حياته الطبيعية والى دراسته بعد فترة وجيزة. الأمر الجيد أنه حصل على العلاج مجانا لأنه لديه تامين صحي وهنا ارتاحت الأسرة من هم ظل يرزح فوق كاهلنا طوال فترة مرضه.

تعرفت على وليد من خلال عمي عادل لأنه كان دائما يزورنا إلى المنزل ويقعد معنا ونضحك سويا. أخبرت وليد مرة عن قصة الاميرة مونونوك المستذئبة والتي تركت البشر لتعيش مع الذئاب. قصتها مع الذئاب بدأت من الرغبة في الانتقام لأن إحدى القبائل المجاورة هجمت على قريتها ومات الجميع ولم يتبقَ سوى مونونوك التي أخذتها الذئاب لتعيش معهم. الذئاب ايضا يبحثون عن الثأر من تلك القبيلة لأنها تقوم بقطع الاشجار من الغابة وبدأت الغابة في التدهور مع استمرار البشر في قطع الاشجار. أخبرني أن الجميل هو كيف أن البشر هم السبب في مأساة الأميرة مونونوك وأنها وجدت الطمأنينة في حياتها مع الذئاب. وليد ذكي ولماح ولكنه لا يستطيع أن يخفي ذلك الحزن الذي يشبه ما نراه في عيون المغدورين. وليد يحب التعليم جدا وهو مهتم به إلى درجة كبيرة. لكن رحلته مع التعليم لم تكن بالأمر اليسير. كان متفوقا على الجميع وكان أولاد عمه لا يريدونه أن يكمل تعليمه حتى لا يبدو أفضل منهم. فكانوا يمرون على أبيه في الحقل ويسخرون منه كيف أنه يعمل في الحقل وحيدا بينما ابنه يدرس. أبوه كان عجوزا وكان يعود إلى البيت وهو مستاء من

وليد أيما استياء. كان يصر على وليد أن يترك الدراسة وأن يعمل معه في الحقل بدلا من الذهاب إلى المدرسة فهو كما كان يقول أبوه يستطيع القراءة والكتابة وهذا هو الأمر المهم. أضاع وليد بعض سنوات الدراسة لأن أباه كان يأخذه إلى الحقل عنوة أيام الامتحانات وبهذا كان يتوجب عليه أن يعيد الدراسة في العام الذي يليه. حتى عندما التحق بالجامعة كان لا يجد قوت يومه إلا عنوة و كان يعيش على ما يجود به عليه أصدقاؤه دون أن يشعروه بذلك. أخبرني أنه في أيام الدراسة الجامعية كان يستيقظ مبكرا في القرية لكي يذهب إلى الامتحانات ولكنه كان يصل إلى موقف السيارات وليس لديه نقود. ترجى ذات مرة صاحب السيارة أن يأخذه سلفة لأن لديه امتحانات في الجامعة فرفض. انهار وليد وشعر بشيء ما يتحطم في داخله وكأنه فقد كل شيء في حياته. أخذ ملازم الدراسة وقطعها وعاد إلى البيت خائبا لا يوجد سواه وهذا العالم المتناقض الذي يضج في رأسه بالأسى. أن تكون وحيدا لا يهم ولكن أن تدرك أن لا أحد يدرك مدى الوهن الذي يقتات روحك فهذه مأساة. أصدقاؤه كانوا يسألون عليه باستمرار وهذا كان يشجعه على اكمال دراسته الجامعية فأكملها بالكاد وقد أصبح مثلا في القرية للشخص المثقف الذي يلجأ إليه أبناء القرية لكي يراجع لهم دروسهم وفروضهم المدرسية ومثلا لأصحاب الحظوظ العاثرة.

أراه دائما منهار وهو يتنهد دائما ويردد "ودع هريرة إن الركب مرتحل.. وهل تطيق وداعا أيها الرجل". كان يخبرني أن هذا البيت الشعري فيه لوعة وحب وحسرة وجمال لا يوصف وهذا نادرا ما تراه في مطلع قصيدة ويخبرني أيضا أن هذا البيت يشعر القارئ بالارتواء من القصيدة ويحثنا على قراءة الأبيات اللاحقة. إنه يردد هذا البيت الشعري ويندب حظه في هذه الدنيا لأنه لم يستطع الزواج من ابنة عمه التي كان يحبها. الموضوع لا يقف هنا لأن السبب الرئيسي كان عدم امتلاكه للمال وكانت ابنة عمه تكبر فقرر أهلها أن يزوجها قبل أن تصبح عانس. في ليلة زواجها كان وليد هو (الشويع) الذي أوصلها إلى دار

زوجها. كان لا يعرف هل هو يمشي في عرس أو يمشي في جنازته – على حد وصفه. كانت خطواته ثقيلة وكان يتساءل هل هو في حلم أم أنه يشاهد أحد الأفلام التي دائما ما تمعن في تهويل مأساة المرء حتى تؤثر على المشاهدين. كان يخبرني كيف أنه أصبح شاعرا فقط من أجلها وأن حلمه الوحيد في الحياة هو أن يتزوج منها. كان دائما ما يخبرني عن رواية مرتفعات وذرنج وكيف أن كاثي تخلت عن حبيبها هيثكلف من أجل شخص آخر أكثر ثراء. بالرغم من أن كاثرين كانت تعلم تماما أنها تحب هيثكلف إلا ان المكانة الاجتماعية التي كانت تبحث عنها قادها لزواج من ايدجر. كان دائما يردد أن هيثكلف لم يحب كاثي من أول نظرة بل أنه الحب الذي ترعرع معه منذ الصغر. مأساته الوحيدة لم تكن ذنبه فهو لا يعرف أبويه وكان لا يمتلك المال الذي يمكنه من خلاله أن يسعد كاثي. وبعدها يتساءل لكن كاثرين كانت غنية وما تمتلكه من مال كان يكفي لأن تعيش مع هيثكلف بسعادة فهي من تخلت عن هيثكلف.

هنالك الكثير من الاشياء التي يمكن للمرء أن يقولها وما تخبرنا به ايميلي برونتيه هو أن الإنسان لديه خيرات متعددة في الحياة وعلى النقيض هناك الأطر الاجتماعية التي تعتبر من التابوهات التي من الصعب أن يتعداها المرء والتي هي مصدر طمأنينة لكثير من الناس. لكن يظل المرء هو المخير في كثير من الأشياء ويجب عليه أن يبحث عن السعادة أينما كانت فليست كل العادات الاجتماعية تصب في مصلحة المرء.

وليد يخبرني أن الحياة يجب أن نعيشها كما عاشتها جرايت في رواية الفتاة ذات الأقراط الماسية. جرايت كانت تعيش مع والديها وبعد أن أصيب والدها بالعمي انتقلت للعمل كخادمة. كان عيبها الوحيد أنها جميلة لذلك وجدت نفسها فجأة في الشارع لتتزوج بعدها من الرجل الذي كان يعمل جزارا. وهكذا عاشت حياتها تتماشى مع الواقع.

جرايت عاشت حياتها وهي تتماشى مع الاحداث والاميرة مونونوك استطاعت أن تعيش في نهاية المطاف حياة طبيعية بعيدا عن الضوضاء فالحياة في الغابة عادة إلى ما كانت عليه أما السيد هيثكلف فمازال يؤرقه شبح كاثرين الذي لا يفارقه. و وليد يعيش واقعا مرا لا يختلف عن ما نقرأه في الروايات وأنا لا أعرف عن حياته الكثير ولكن ما أعرفه أن حياته غير مستقرة فهو ليس لديه وظيفة ولم يتبقَ لديه المال الكثير فهو بالكاد سيعينه على العيش لشهور قليلة. أيضا ابنة عمه قد تزوجت وحاول بعد ذلك أن يشتغل كمشعوذ وترك هذا العمل بعد ذلك بسنتين. هو الآن يعيش حياته المليئة بالأسى الذي أعرفه من ارتعاش اصابعه ومن لمعة عينيه التي تخبرنا الكثير عن طيبة وليد وعن شغفه في الحياة و صبره اللامحدود على كل شيء.

obeikandl.com

(٢)

و ليد مازال ذلك المحارب الذي يخوض غمار الحياة بشرف و نزاهة و يحاول جاهدا ان يتعامل مع صخرة سيزيف التي ترزح فوق ضهره. رجل لا يستسلم و دائما ما يبحث عن فرص افضل للحياة و ما يميزه هو انه لا يمر عليه يوم بدون فائدة. مؤخرا اشترى مجموعة كتب لانطوني روبنز ولكنه رماها ولم يتابع قرائتها. بالنسبة له فالحياة هي نوع من التجريب المستمر و البحث عن الفرص لايجاد الذات. يحتاج المرء الى الكثير من الحكمة و الصبر و التعامل مع المواقف حتى يكون اكثر صلابة و يتمكن بعدها من مجاراة حياته. صحيح ان وضع البلد غير مشجع و لكنه يخبرني ان بوسع المرء ان يكون شيء ما اذا ما ادرك ما يريد. هذا هو محور جميع كتب البرمجة اللغوية العصبية و لا تحتاج الى قراءة و امعان بقدر ما يحتاج المرء الى المضي فحسب و بالاخير سيرى طريق النور.

تكالبت الديون على وليد و هو الرجل الشامخ الذي لا يمكن ان ينحني الى شخص. يعيش حياته بكرامة ووجد مؤخرا ان عليه اكمال دراساته العليا. التحق ببرنامج الماجستير و بدأ يبحث عن عمل و كان العمل المتاح له هو ان يعمل كعامل طلاء باليومية.

رجل شغوف بكل شيء يقوم به و بدأ اعمله الذي اتقنه بسرعة ولم يبدو عليه اي تذمرمن اي شيء. كان يحرك الفرشاة و كأنه يراقصه و يبدأ بترميم الجدران و طليها ليجعلها تبدو لامعة و جميلة و لا يبدو عليها اي اثار. كان يرمم الجدران و قلبه مليئة

بالندوب و التشققات التي تركتها له الحياة و هو مازال في مقتبل العمر. قلبه الواسع المليء بالجراح كان يحتاج الى ترميم قبل كل شيء و لكن من بوسعه ان يصل الى قلب وليد ذو الأنفة و الشموخ و الذي يبادر الى تلبية حاجات الغير قبل الاخرين. كان نزف قلب وليد يتدفق من عينيه المغرورقتين و المليئة بالطمأنينة. كان يرتب المنازل للاخرين لكي يعيشوا فيه و يجعلها في غاية الجمال و الدفئ و حياته في مهب الريح و تفتقد لابسط مقومات العيش. هكذا يعيش المرء منهك بغيره و يحاول جاهدا ان يجعل كل من حوله يشعرون بالرضى في الوقت الذي يمتلئ فيه قلبه سخطا على حياته التي لا يعرف الى أين تقوده. لم يعد مهما من يقود الاخر، هل وليد يقود حياته ام انها عصية على التطويع و هي التي تقوده في منحدرات هذه الحياة بلا هواده.

كنا نتذمر من كل شيء الا وليد الذي كان يقول دائما ان الحياة ستكون أفضل وليس على المرء سوى مجاراتها. كان منهمكا بعمله و ايضا بدراسته فهو دودة كتب لا تمل من القراءة و البحث عن كل ما هو جديد. رجل يقضي يومه كاملا في القراءة و الاطلاع و لديه ذلك النوع من الشغف في الكتب فهو يمكن ان يدفع كل ما يملك مقابل ان يحصل على كتاب يريد ان يقرأه. كان كلامه دائما يدور حول اولائك العظماء الذين اضافوا شيئا الى الحياة و غيروا مجرى العلوم. رجل يعاني الكثير و خذلناه جميعا و مازال يتحدث عن قدرته على اضافة شيء لهذه الحياة. قلبه المترهل يبدو صلبا من نظراته و لا يوجد في قلبه اي شيء ينم عن الحقد او الشعور بالمظلومية. يتحدث عن الحياة و يقول دائما ان هناك دائما معوقا اذا كان المرء يريد تحقيق شيء ما. الحياة ليست بتلك السهولة التي نتوقعها كما يقول ولكن علينا ان نروض خطواتنا و ان نشعر بالنشوة في ضل هذا الشتاء الذي يخيم على حياتنا.

اصبح اكثر حكمة و هو لم يتجاوز الثلاثين من عمره و هذا يظهر من كلامه و هو

يقول عندما يشعر باليأس ان يعرف ما يريد لذلك ستكون حياته أسهل. كل ما كـان يقولـه هو سأحصل على الماجستير و بعده الدكتوراه و حينهـا سـتكون حيـاتي اسـهل. اذا لم تكـن بلادي تتسع لخطاي فسأجد لي طريق للعيش الكريم خارج حـدود هـذا الـتراب. و يـردد بعدها ما قاله درويش:

كأن انت حيث تكون

و احمل عبئ قلبك وحده

و ارجع اذا اتسعت بلادك للبلاد

و غيرت احوالها.

obeikandl.com

الفصل الرابع

بالنسبة لي فوقتي دائما ما أقضيه مع صديقي العزيز صفوان. صفوان يظل الجانب الآخر للعالم الجميل الذي أعيش؛ فذكرياتي معه هي القادح على المضي في الحياة والبحث عن كل ما هو جذاب وحميم. تعرفت على صفوان بعد أن جئت إلى المدينة من القرية حيث كنت في السابعة من العمر تقريبا. في القرية كانت الحياة مقتصرة على اللعب في ساحة القرية أو ساحة المدرسة وكانت الالعاب مقتصرة على كرة القدم وكذلك على اللعب بال)عجلات(حيث كنا نلاحقها من مكان إلى آخر حتى صلاة المغرب ونعود إلى البيت منهكين تماما.

في المدينة يبدو العالم أكثر اتساعا وهناك من الأماكن ما تترك بصمة في الذاكرة لا يمكن بأي حال من الاحوال تناسيها. في المدينة شوارع واسعة وأزقة نتسابق منها وكذلك عوالم مخيفة للطفولة. تعرفت على صفوان بعد القدوم إلى المدينة وكان المكان المحبب لنا هو مطعم الأعجم لشراء سندوتشات الفاصوليا. كانت الرحلة إلى مطعم الأعجم هي مغامرة يمكن لنا أن نتعرض خلالها إلى ذكريات سيئة ستعكر مرحلة الطفولة برمتها. في الطريق إلى مطعم الأعجم كان يقطن أولاد مناع في الشارع الذي يفصل بين حارتنا والحارة التي يوجد فيها مطعم الأعجم. أولاد مناع تركوا بصمة في كل أولئك الذين يمرون من شارعهم. اولاد مناع يتجولون في الشارع بثيابهم المقطعة ورؤوسهم الصلع الذي تظهر عليها آثار

مدرجات من الشعر لأن أمهم هي التي كانت تقوم بمهمة قص الشعر وكانت الندبات من آثار الحلاقة لا يمكن أخفاؤها. وجوههم مخمشة وأسنانهم مكسرة من المشاجرات مع أولاد الحارات المجاورة. ما أن تمر من حارتهم حتى يتحولون إليك كمجموعة من الزومبي التي بالكاد رأت فريسة في الشارع ليمسك بك أحدهم و يضعك على الجدر ويبدأ بالمسائلة العسيرة. كان أول سؤال يطرح على أي طفل يقع في قبضتهم هو لماذا تعايرني؟ لم تكن هنالك إجابة لأنه لا يوجد أي أحد يجرؤ على معايرة أولاد مناع. تخبره أنك لم تقل أي شيء فيزداد غضبا وهذا هو الأسلوب الذي ينتهجه أولاد مناع في الهجوم على الضحايا. كانت رحلتي مع صفوان إلى مطعم الاعجم هي البحث عن متعة الفاصوليا التي تشتمها من نهاية الشارع وكان أولاد مناع هم الخطر الداهم الذي يجعلك تتخلى عن تلك المغامرة. مع ذلك كنا نغامر مرارا وكان أملنا الوحيد هم المارة الذي يمشون في الشارع ويعرفون أولاد مناع المشهورين في كل أطراف المدينة. كان المارة من كبار السن والشباب يسارعون مباشرة إلى تحريرنا من قبضة أولاد مناع فيتراجعون وهم يكزون على أسنانهم وعيونهم تشتطاط غضبا وتخبرنا أننا لن نفلت في المرة القادمة. كان الذهاب إلى مطعم الأعجم يشبه رحلة فرودو في رواية ملك الخواتم فهنالك من الخطر ما يجعلك تفكر في كيفية النجاة بحياتك. كنا نتحمل كل تلك الصعوبات لنشعر بنشوة قضم السندوتشات ونلتهمها وقلوبنا تدق بشدة وكل شيء مشوش في ذهننا لأننا نفكر في العودة والطريق الذي يطول كثيرا لوجود أولاد مناع.

في المدرسة كان صفوان وأخوه هم السبب الرئيسي لذهابي إلى المدرسة وذلك لأن أمهما كانت تصنع سندوتشات جبن مع مربى فيها من اللذة ما لا يمكن وصفه. كنت اشترى أجود أنواع الجبن والمربى ولكن سندوتشات صفوان كانت تشدنا لنقف في فترة الاستراحة فاغرين أفواهنا منتظرين صفوان حتى يشبع لكي نأخذ ما تبقى من السندوتش.

كان استبداد الأستاذ خالد يزول عندما التقي بصفوان. المخاوف التي كانت تنتابنا من أولاد مناع هي نفس المخاوف التي تؤرقنا من حصص الأستاذ خالد الذي كان يدخل إلى الفصل الدراسي ومعه ثلاث من عصا الخيزران مصلقة ببعضها البعض. كان يشرح وكنا نفهم ما يقول تماما ولكن عندما يسأل كان لا أحد يجرؤ على الإجابة خوفا من ذلك الشطط في نبرة الأستاذ خالد والعقاب الذي يمكن أن تناله من عصاه في حال أخطأت في أي شيء. أتذكر أنني كنت أذاكر بجد وأحفظ الأناشيد المدرسية ولكن عندما يحين دوري كانت الإجابة الموجودة هي لا أحفظ لينقلني بعدها الأستاذ خالد مع بقية الطلبة إلى خارج الصف لننتظر حتى نهاية الحصة حتى ننال جزائنا الرادع على التقصير في المذاكرة. في البيت كنت أذاكر وأكتب كل شيء ولكن الأستاذ خالد يجبرك على الاستسلام وكأنه لم يكن يأتي إلى المدرسة إلا لكي يفرغ جام غضبه علينا. كانت فترة الانتظار حتى يخرج الأستاذ خالد ليباشرنا بالضرب على أيادينا هي نوع من العذاب أيضا حيث كنا نفكر في كيفية التماسك أما ضرباته التي تنهال علينا بلا هوادة. ضربة واحدة فقط تجعلك خائر القوى وكان البكاء دائما يبدأ قبل أن يباشر الضرب. عندما تخور قواك فإن الهدف سيكون قدمك وظهرك أوي جزء من جسدك حتى تمد يدك مرة أخرى لذلك كان يتوجب علينا التماسك. لم أكن أعرف من أين يستمد الأستاذ خالد تلك الطاقة السلبية التي يفرغها في طلابه رغم أنه كان يبدأ كل حصة بمقولة "أبنائي الطلاب". كنت عندها أشعر أن هنالك أشياء ليس في يدنا حيلة عليها فهو يسعى لنيل ثقتنا في الوقت الذي يفرغ فيه وبكل بجاحة ثقة الطلاب بأنفسهم. لا أعتقد أنني أو أي طالب تتلمذ على يد الأستاذ خالد سيتمكن من نسيان تلك العصى التي كانت تتكسر في أيدينا محدثة ذلك النوع من القهر العميق الذي لم نتخلص منه إلا بعد سنوات طويلة.

في الوقت ذاته كنا نحسد زملائنا في الصف المجاور الذين يدرسون على يد الأستاذ

جمال الذي كان يحضر إلى الفصل ومعه الحلوى وكذلك البيانو ليشرع في تـدريس الطـلاب الأرقام على هيئة أناشيد وأغاني ذات الحان جميلة. وكان يوزع الحلوى على الطلاب ليتباهوا بها أثناء فترة الراحة لأنهم كانوا يحفظون تلك الأغاني التي تدربهم على الحروف والأرقـام. كان الصدى ينبعث من صف الأستاذ جمال بينما كنا نقضي يومنا كلـه متـأزمين تحـت وطئـة الأستاذ خالد وكلماته القاسية التي كانت تكدس فينا الاحباط وتزرع فينـا مـن الخـوف مـا يكفي لأن نظل تحت سيطرته بقية العمر.

انتقلت إلى الصف الرابع بالكاد وبدأت بعدها تحدي جديد وهو التعامل مـع العديـد من المدرسين بدلا من مدرس واحد. كنت أكتب واجباتي وأذاكر مـن بعـد صـلاة المغـرب وكنت نشيطا داخل الفصل المدرسي وتمكنت بعدها من التخلص من تبعات الأستاذ خالـد وذلك العبء الذي تركه على كاهلنا خلال الصف الثالث الابتدائي.

في العصر بدأت أنا وصفوان في التوسع في حياتنا اليومية والبحث عن ملـذات المدينـة بعيدا عن أولاد مناع. كنا نستأجر درجات هوائية وننتقل إلى السوق المركزي لنتجول هناك ونكتشف كل يوم إحدى المزايا لهذه المدينة. كنا نذهب ونأكل سلطة عند "الرابون" كما كان يشتهر بين الناس لأنه كان أحول العينين. سلطة غليظة تحصل عليها في وعاء صـغير وكـان لا يعطيك إياه إلا بعد أن يمسح كفه في جبهته ليقطر العرق داخل الوعاء. كنا نأكلها بـنهم وكانت هي الوجبة الاساسية. بعد سلطة الرابون وبطاط صلاح ونباتة الحاجة فاطمة بـدأنا بالتجول داخل المدينة القديمة. ذلك المكان المليء بالأساطير والناجع بالفتوة في كل شـبابه. كان الوصول إلى المدينة القديمة يعني التجول على تخوم الموت والتعرض إلى خطر لا تعرف من أين يداهمك. كان الناس يتجولون بأريحية وكان الجميع يرد السلام وينـادون الآخـرين بأسمائهم. من الداخل توجد تلك الألفة بين أبناء المدينة القديمة ولكن التجول فيها للغرباء

يعتبر من الأشياء التي لا يجرؤ عليها أحد. كنت أنا وصفون بالكاد نصل إلى محل العم ناجي الذي نأكل عنده الرواني والبقلاوة. العم ناجي كان كريما ويكرمك بشدة مقابل عشرات الريالات وكلما ناديته بالعم ناجي كلما أغدق عليك. كانت المدينة القديمة هي ذلك المكان التي تدور حوله حكايات الاطفال والمراهقين وكانت تمثل ذلك الرعب الذي يتسلل إلى ذواتنا ليبقينا مبتعدين عن ذلك المكان الذي توجد فيه سينما وعصابات لا تتهاون في التعامل مع أي زائر يقتحم تلك المنطقة.

كنت في الابتدائية مجتهدا بدراستي وكنت أشارك في المسابقات التي تعقدها المدارس وحظيت بسمعة جيدة بين زملائي. وانتقلت بعدها للإعدادية ثم للثانوية لأدرس بعدها في مدرسة النهضة. مدرسة النهضة الشهيرة بسمعتها الطيبة والشهيرة أيضا بأبناء المدينة القديمة المعروفين بخفة دمهم و تكاتفهم فهم لا يتهاودون مع أي شخص يسيء لهم. كانوا يطلقون على أولئك الذي يجيئون من خارج المدينة للدراسة اسم "التتار". اسم يوحي بأن هؤلاء الطلاب أولاد قرية ولا يفقهون شيئا في حياة أولاد المدينة. كانت المهمة التي تتوجب على أي طالب يدرس في النهضة هي التعرف على أحد أبناء المدينة حتى يكون في مأمن من مكرهم وتكون بعيدا عن ذلك الخطر الذي يتجول في ذهننا منذ الطفولة حول تلك المنطقة المحظورة على جميع أبناء المدينة والمسماة بالمدينة القديمة.

دأبت أنا وصفوان على التعرف على أحد ابناء المدينة المعروفين بكونهم (نزغات) وكذلك أوفياء. كنا نهتم بمظهرنا حتى لا نبدو مثل التتار كما يسميهم أبناء المدينة القديمة. تعرفنا على جلال وهو كان سمينا وقصيرا وذا قلب طيب. ما هو معروف عن أبناء المدينة هو البساطة في حياتهم وهذا كان أيضا السمة السائدة في جميع انحاء المدينة القديمة. جلال يعتبر انعكاسا لحياة تلك المنطقة وهو تربى وترعرع هناك ويعرف الجميع. كنا نخرج من

المدرسة ثم نتجه إلى المدينة القديمة بنقودنا البسيطة والتي تمكنك من الحصول على وجبة غداء مكتملة. هناك في المدينة القديمة تكتمل صورة العائلة اليمنية المتكاتفة والتي تمثل المجتمع الجمعي. يعيش الجميع متكاتفين وطيبة النفس أو البركة هي ما يعتمد عليه أبناء هذه المدينة. منازلهم تبدو شائخة مقارنة بالمنازل الموجودة في المناطق الأخرى. يبدو على أحجار المنطقة الوقار وكل بيت مليء بقصصه التي لا تنتهي. البيوت تكتظ بالسكان والاحفاد تملئ المنازل والصغار يلعبون في كل ممر في المدينة. سلسلة من الأجيال المتنوعة المظاهر والانتماءات الحزبية والميولات الشبابية. التناغم هو سمة كل شيء وأنا أعني التناغم بين البشر والبيئة والأجواء التي تتغير من وقت لآخر من بعد الفجر حتى وقت متأخر من الليل. تتجول أجواء المدينة القديمة في نفوس بقية المدينة ولكن هيبة المكان هي ما تنقص بقية أجزاء مدينة إب. إذا كانت ماكوندوا تحكي جذور عائلة واحدة وهي عائلة بوينديا فالمدينة القديمة تحكي جذور مجتمع بأكمله. تحولت ما كوندوا إلى أنقاض، لكن المدينة القديمة ما زالت تتجدد فيها الذكريات كل يوم. كان أباؤنا يحجون إليها دائما ومازالت ذلك المكان المهيب الذي نتجول فيه متحسسين تلك الحكايات التي لا تنتهي.

كانت صحبة جلال هي التي فتحت لنا أبواب المدينة لنتجول منها و لحسن الحظ انه جاء و سكن بجوارنا ليعمل كحارس لمنزل عمه. كان يخرج من البيت ويظل يراقبنا كيف نلعب كرة القدم. فهو كان يقضي معظم وقته في لعب كرة القدم في مقر الأندية الرياضية لأنها كانت قريبة من المدينة القديمة والتي كان أبناؤها هم الأساس التي قامت عليها كرة القدم في مدينة إب. بدأنا بالتعرف على جلال بوجهه المرح وانتقاداته الفكاهية اللاذعة التي تعكس خفة دم أصحاب المدينة القديمة وتعكس ما تعنيه كلمة نزغه من إيحاءات.

بدأت أفهم جلال أكثر فأكثر فهو أيضا يعتبر انعكاسا للبساطة والتخبط الذي يعيشه

أبناء المدن بعد إكمال الثانوية. كان جلال متخبطا ومحبطا على الدوام وعندما كنت أتكلم معه كان دائما يقول لي بصوت يحشرج علينا أن نقضي هذه الحياة بشرف ونزاهة. كانت نبرة جلال مليئة بالأسى والمعاناة وكان وجهه يقطر ذلك النوع من اليأس الذي لم أجد المبرر له. كان جلال يصحبنا معه إلى المدينة القديمة في فترة الصيف وكنا نذهب إلى هناك بنقودنا البسيطة ونعيش حياة البسطاء. كنا نشرب ونأكل تلك الوجبات البسيطة المكونة من العدس والفاصوليا وأحيانا تلك الوجبات التي لا توجد إلا في المدينة القديمة ك(الكراوع) وكانت اللذة هي المصاحب لنا في البحث عن متعة ذلك العالم.

فجأة بدأ يظهر على عيني جلال ذلك اللون الأصفر الذي يوحي بوجود مرض ما. أخبرنا أنه يعاني من فيروس الكبد وهذا هو السبب الذي كان يجعله يبدوا كالحا طوال الوقت. كان يتحدث أن الحياة قصيرة ولكنني لم أفهم ماذا كان يقصد بالنزاهة إلا بعد أن أخبرني قصته مع فيروس الكبد. قبل أن أتعرف على جلال كان يعمل كممرض في إحدى العيادات وكان يتبسم دائما عندما يتذكر عمله كممرض وذلك من المواقف التي كانت تحصل كأن يأتي رجل عجوز ومعه علبة حليب كبيرة مليئة بالمخلفات وذلك لأن الدكتور طلب منه أن يحضر عينة للفحص. كان جلال يحصل على راتب لأنه كان يعمل في تسجيل وتنظيم المرضى وكان أيضا يحصل على النقود لأنه كان يقوم بالمجارحة للمرضى الذين يجيئون من الخارج بسبب الإصابات ويقوم بضرب الإبر للمرضى. كان يكسب كثيرا.

كان هناك ممرض آخر يعمل بجوار جلال. جاء جلال ذات مرة وعليه جرح بإصبعه فاستخدم عدة الجراحة. العدة لم تكن معقمة وعندما سأل زميلة لمن جارحت البارحة أخبره أنه جارح للرجل الذي دائما يجيء إليهم بسبب مرضه وهو مصاب بفيروس الكبد وقد أخبرهم بمرضه لكي يأخذوا الحذر. كان جلال ينظر لعدة الجراحة وهو يعرف أنها لم

تكن في صندوق التعقيم وينظر ليده بعد أن جارحها. أخبرني أنه لم يجرِ فحص فيروس الكبد لأنه أيقن تماما أنه قد أصيب بهذا المرض. كان جلال يأخذنا لنتجول في أزقة المدينة القديمة وكأن رجليه تسحبه في دنيا من الضياع. ترك عمله خشية أن ينتقل الفيروس إلى أي شخص آخر فيكون السبب في معاناة الآخرين. كانت عيناه صفراوين ومغرقة وكان ينظر إلى الأفق دائما وفوق كاهله ترزح دنيا من المعاناة والتشرد في عوالم من التيه المسيطر على كل ذرة بجسمه. لم يكن ناقما على أحد ولم يكن يحمل في طياته أي شحنة من البغض لأي شيء. على العكس كان يجيء من المدينة محمل بالطعام الذي يعطيه للقطط والكلاب التي كون معها صداقة في فترة وجيزة. كانت القطط تنط على كاهله وتحوم حوله وتظل أمام بابه منتظرة حتى يعود ليطعمها. كان يصرخ عليها أن تتوقف عن التحرك فتقف تلك الحيوانات ثابتة ويبدأ بالسب على تلك التي لا تسمع كلامه فتصمت تماما. كنا نلاحظه ونضحك فموقفه يبدو وكأنه يخاطب بشرا وليس تلك الحيوانات التي كانت تلمع عينيها وهي تنتظر أن يعود جلال الذي لم يخذلها قط. لكننا خذلناه جميعا فلم نقف جميعا أمام تلك العيون المصفرة والمغرقة ولم نكن نتفقده من وقت لآخر. منحنا عوالم مليئة بالمرح ولم يسمح لأي أحد أن يطرق عالمه المليء بالأسى. إنه كبرياء الساموراي وأناقة المحارب النبيل.

ذات صباح كنا على موعد معه حتى نمر ونتجول في المدينة ولكن أحدا اتصل يخبرنا أن جلال انتقل إلى رحمة الله. هنا أدركنا ماذا كان يمثل جلال لنا وافتتحت أبواب الخذلان على أرواحنا حيث كان يمنحنا ما نريد في الوقت الذي كانت حياته في عد تنازلي سريع. كل شيء في الحي يفتقد لتلك الخطوات حتى تلك القطط والكلاب الضالة التي كانت تأوي إلى ركن جلال كل يوم لم نعد نسمع منها سوى العويل الدائم. هنالك من يمنحك في الوقت الذي لا يملك فيه شيء وهنا تكمن عظمة الانسان.

لم يكن جلال بطل فيلم (سترنجر ذان فيكشن) حتى يتمكن الكاتب من إنقاذ حياته في آخر اللحظات أو يسعى جلال للبحث عن الراوي حتى ينقذ حياته. بل كان جلال يتماشى مع الواقع حتى أنه رفض الزواج حتى لا تتحول حياة زوجته إلى كارثه لأنه كان يدرك أن حياته أصبحت رهينة المرض. هكذا كان جلال يبعث النزاهة فينا ليرحل بعد ذلك تاركا لنا بابا مشرعا من الحكايات الجميلة التي ليس للكلمات حيلة عليها.

لم نعد نزور المدينة القديمة لأن جلال لم يعد متواجدا معنا ولم تعد قهقهاته تملئ تلك الأزقة التي تفتقد خطواته ولم يعد المارة يردون التحايا علينا كما كان الحال عندما كنا نتجول مع جلال. ثمة من يرحلون بهدوء تاركين تلك المساحات الشاغرة في الروح والتي لا يمكن لأي شخص أن يملأها. عيونه كانت تخبرنا عن مدى معاناته ولكننا لم نكن ندرك أبعاد ذلك الحزن ومعنى الأسى والنزاهة إلا بعد أن رحل جلال تاركا لنا إرثا ثقيلا من الذكريات التي تتدفق فينا بلا شعور من وقت لآخر.

obeikandl.com

الفصل الخامس

لم أكن أود مغادرة اليمن ولكنني وجدت نفسي مجبرا على المغادرة من الحروب الدائرة هناك. الجميع يحاول الخروج من اليمن فلا أحد يأمن على نفسه هناك فقد فقدنا الكثير من الأصدقاء. كان يجب أن أغادر اليمن و كانت محطتي هي كوالالمبور عاصمة ماليزيا والمشهورة ب كي ال. في أيامي الاخيرة في اليمن أصبحت الحياة مترهلة جدا وأنا لم أعد أجيد فن التماسك. انساب كل يوم بلا إرادة للحزن وأتجول معه بكامل أناقته في أروقة الزمن القديم لعلني أحظى بلحظة نسيان كي أستعيد تألق عينيي. عيناي التي أدمنت لغة الحزن ومع ذلك تسعى جاهدة لطمأنتني أن هذا اليوم سيمر بسلام. الأمل والصبر كانا رفاقي هناك في اليمن. كنت كل يوم لا أريد شيئا سوى أن يمر اليوم المشبع بثاني أكسيد الكربون بسرعة كي تتمكن روحي من التأرجح في الهواء كقبرة تمارس هوايتها المفضلة. الأصدقاء لم يعودوا يغرونني بنصوصهم التابينية ولم تعد حروفهم تواسي لحظة الانكسار. كان كل شيء مهشم وفارغ.

كنت في أيامي الأولى في كي إل دائما أعود إلى أيام الزمن الجميل. للطفولة نكهة أخرى وذاكرة لا تسعها حتى امتدادات الأفق. أحن إلى ممارسة ركوب الدراجة الهوائية والتجول في أزقة المدينة كتائه يفتش في مدينة الضباب عن حلم جديد يتم تنصيب ما تبقى من العمر على أبوابه. كانت هنالك حياة وسعادة تتجول في داخلك من خلال كل شيء. لم يكن

عليك سوى مجاراة الوقت حتى يسدل الستار عن الأفق في دنيا مليئة بكل ما هو جذاب وحميم. دنيا تقضيها ولا يترتب عليها أي ضغائن في عالم ميزته الوحيدة هي السذاجة والافتقار إلى الخبرة. روائح الذكريات تلوك العمر لأجدني متمتعا حتى بالمشاكل الصغيرة التي كانت تتلاشى مع انبثاق الظلام. لا شيء يمكن أن يعود وعليك أن تمضي بقية العمر متوجسا من كل شيء حتى قدرتك على الحلم.

هل ستستعيد الذاكرة ذلك النزق والأحاديث الشيقة عن ماركيز وهيمنجواي ومكينة الأدب ميلان كونديرا؟ المجالس في اليمن كانت لا تكف عن تداول القصائد والقصص القصيرة لأصدقاء لا يقلون أهمية عن كبار الكتاب. يسطرون لحظات المدينة المليئة بالماسي والفرح في عالم الأدب لتظل صدى سطورهم هي المرآة الأجمل لمدينة لا نستطيع توصيفها بأقل من كونها مدينة السلام. هي مدينة كل تفاصيلها يدعو إلى الدهشة تدرجا من عتبات الجامع الكبير إلى كل الهضاب المليئة بزهو الطبيعة ورقي النفس الإنسانية التي تزاول حياتها بكل كرامة حتى على أرصفة المدينة.

كم أحن إلى كل شيء هنالك في الأزقة الملتوية والبيوت الشائخة، حتى المقابر فيها كانت تعج بالحياة وبالزائرين الذي يمثلون الوجه الأمثل لمعاني القيم الإنسانية وهم يترحمون على الأجيال السابقة. كان كل شيء في متناول الجميع حيث أن الصبح يمثل النزهة الجميلة في شوارع مكتظة بالذكريات إلى المجالس المليئة بكل نزق الحياة. تعرق النوافذ والجدران وتلك الاصوات التي تبدأ بالهدوء مع غروب الشمس في مجالس القات سيظل ملاذا آمنا لهذا القلب الذي أصبح مثقلا تماما. كانت الذاكرة هي الملاذ الذي ينفخ الروح في هذا القلب الصدئ.

في كوالالمبور أدركت معنى الحنين إلى الوطن وكيف يمكن للمرء أن يمسي وحيدا

وقلبه يئن بحثا عن أبسط الأشياء. صوت الأم المتدفق من الهاتف كان الملاذ الذي ألجأ إليه دائما. ثمة من يبث فيك الأمل ويبعث في كل لحظة ما يليق بالعمر. حياة نجرها من أذيالها ومدن لا نزال نروض الركض على مساحاتها الشاسعة.

ثمة فرصة لإيجاد الذات حتى وأنت تمارس هواية البقاء وحيدا، لم يعد التواصل جذاب في خضم حياة مليئة بالمآسي. أصبحنا نعيش خارج إيقاع الزمن وندمن الرقص خارج إيقاع التواجد الإنساني. فقد الناس الكثير من المرح وأصبحنا نتداول الآلآم بنفسية شخص أصبح بعد الكثير من المعاناة قادرا على التعايش مع قرحة المعدة إذ لم يعد الألم يشكل العبء على نفسيته المتفاقمة. يعيش الناس في كي إل على إيجاد المرح على صندوق التذاكر والشوارع الواسعة والقادرة على إضافة طابع استثنائي للحياة. نحتشد لممارسة الألم في الوقت الذي يتجول فيه الماليزيون في دنيا تمور مكدسين كل إمكاناتهم للحياة بترف على ضوء أي متعة عابرة. ثمة حياة وأناس يرقصون على أي إيقاع الحياة القادرين عن التعبير عنها بألف طريقة. فهم يعرفون كيف يمتصون سرور اللحظة حتى النخاع.

أتجول في كي إل وقلبي مصلوب هناك على شوارع مدينة إب. يبدو أن الأحداث ستجتاح حدود أسانا وأننا سنمر بمراحل كثيرة من القهر والندم بسبب الحروب الدائرة في اليمن. كل شيء يتفاقم والهوان هو كل ما يحيط بك. أود القيام باي شيء حتى يستمر قلبي بالخفقان. محيط في داخلي يضج بالفراغ وذاكرة لم تعد تتسع سوى للمزيد من الألم. أشعر أنني e-wall منعزل من كل شيء وليس لدي في هذه الحياة سوى صرصور يبقي ذاكرتي يقظة. ظل الإله (وول اي) يرتب الأرض بعدما أصبحت غير قابلة للحياة. التقى بعدها ب (إيفا) فتحول من إله ترتب القمامة إلى طاقة من الشعور الجامح. أفكر في إيجاد شريكة حياة لي هنا في ماليزيا فليست تجربة (وول اي) عبثية. هناك الكثير من الأشياء على أرض

الواقع تفوق ما نشاهده على الشاشة الكبيرة أو نقرأ عنه من مرويات في المجلدات الضخمة. أفكر في الأمر مليا ثم أضحك فهذه الهواجس هي ما يتبادر إلى ذهن أي شخص يسافر خارج حدود بلاده. إنه أحد الميكانيزم الدفاعية للنفس لأنها تبحث دائما عن الاستقرار خصوصا بعد أن يغادر الفرد محيطه المليء بالذكريات.

التجول هو ما يبقي ذاكرتي تجاه الماضي خاملة فمدينة كي إل مفتوحة على مصراعيها تمنحك الدفء والهواء المحمل بالكثير من الاحلام والطموح. خذ ما تشتهيه من مفاتن هذه المدينة والمباني الصاعدة بشراهة باتجاه الأفق. ثمة هواء وموسيقى وقلب يتحرك كراقص بالية يؤدي عرضة أمام دنيا لا تكف عن مطالبته بالمزيد. المرح هو جل ما يبقينا على أهبة الاستعداد لاستقبال يوم آخر نستقبل فيه الضوء الباهت بصدور عارية ورئتين تتوسع بحجم تطلعات ما يدور براس المرء من أحلام. المدينة تتوسع مانحة إياك ما تشتهيه من المجال لتتجول ببصرك رابطا أطرافها بما تمنحه النجوم من زرقة باهته على إيقاع قهقهات أطفال قد تعبوا من الركض طوال اليوم. هي دنيا وعليك أن تخاتلها من أجل الحصول على نشوة عابرة.

لكني أعود إلى البيت لأتشرنق مرة أخرى تاركا لمساحات الظلام أن تدفني كأرجوحة صدئة. أتقسم في محيط هذا الفضاء الرخو كقطعة ثلج تفقد شكلها تدريجيا. أتلوى كورقة جريدة تدفها الرياح في شارع غادره المارة. أشرعتي لم تعد تدرك أي الجهات ستأخذها هذه اللحظات. المزيد من التفاءل والتوحد في هذه الحياة التي تدفعني بلا هوادة نحو البدايات. بدايات التعب والترهل والتخندق في هذا الوقت المستفز والداعي إلى الاستنزاف البطيء.

أخرج بعدها إلى كي إل وأتأمل في طرق ملتوية وعالم يمور ويجذبك في كل تفاصيله.. في ماليزيا يمكن للمرء أن يقاوم المأزق الوجودي والعته المتقاذف في هذه الحياة من خلال

الركض في الشوارع الواسعة التي تلبي طموحات المرء. ثمة حياة وثمة وسائل تهيء لك التمتع بكل خطوة تخطوها في أزقة كوالالمبور. ناطحات السحاب تزرع في مخيلة المرء معاني الترف والنزق الوجودي وسبل العيش الكريم الذي يتمتع به الماليزيون عن سائر الشعوب. في كل زاوية هنالك معنى للحياة وفي كل رصيف ثمة عالم تائه في مسرات دنيا قادرة على منحك المزيد. هنا يمكن للمرء أن يجمع بين تطلعاته وشغفة بين الحداثة والأصالة المنبثقة في كل تفاصيل الحياة. هنا ليس عليك سوى أن تجاري مسرات الحياة اللامتناهية.

و هكذا أقضي حياتي بين الانبهار بالمدينة التي لا تنام والذاكرة التي دائما تعود بي إلى حياة لا يمكن تناسيها بأي حال من الأحوال. أحاول أن أتذكر أي شيء يبقي ذاكرتي يقظة لملامسة كل الجماليات والتغاضي عن الذاكرة التي تشبعت أكثر من عشرين عاما بالذكريات.

أخيرا بعد أكثر من أسبوع تعرفت الى مجموعة من الأصدقاء اليمنيين والذين يمتازون بجوانب إنسانية لا يمكن وصفها. أخرج معهم للصلاة ثم نذهب لتناول العشاء ونتحدث عن كل شيء. نتحدث عن ماليزيا التي يعيش فيها الجميع تحت مظلة القانون رغم اختلاف اجناسهم و دياناتهم. لا تكاد تسمع أي نقاش ديني حول أي شيء فهنا تتواجد أجمل المساجد لأداء الصلوات وأيضا تتواجد الكنائس والمعابد. يعيش المالايو والصينيون والهنود حياة تناغم في ظل قانون كفل للجميع حرياتهم ومعتقداتهم. لغات مختلفة وديانات مختلفة وملامح مختلفة مع ذلك تظل ماليزيا هي فوق الجميع.

أظل مع أصدقائي ونتجاذب أطراف الحديث حول كل شيء حول الدين وماهيته ولا ننسى بنفس الوقت أن نعرج على قوام ايرينا شايك ونعومة سكارليت جوهانسون وملامح

كيت بلانشت. هكذا نقضي حياتنا في الكلام كرفقة نبحث عن أي شيء نقضي فيه الوقت.

مع ذلك يظل للعرب عالم آخر غير هذا الكلام الـذي نتداولـه مـن بـاب الدعابـة. في البوكيت بنتانج هنالك شارع مشهور بشارع العرب وهو شارع دعارة بامتياز. تمر من هناك فيتلقفك الطارف عارضا عليك أعمار الفتيات وأسعار زهيدة لقضاء يوم. كان العرب هـم من يرتادون هذا الشارع بكثيرة فسمي باسمهم. يسعى المسلمون في ماليزيـا بجهـد لبنـاء المساجد التي لا توصف والتي تشعر فيها بالطمأنينة؛ حتى أصوات من يصلون بالنـاس في هذه المساجد فيها جمال لا يوصف. يرتبون حياتهم وفقا لمعايير معينـة محـافظين عـلى الـدين والعادات والتقاليد. والعديد من العرب يمرون إلى بلاد لا تنتهـي عجـائبهم ولا يكـادون يستفيقون من سكرهم.

تظل حياتي هنا في كي إل مليئة بالبهجة وذات يوم مررت من إحدى التولات وبينما أنا أدفع الحساب جذب انتباهي تلك الفتاة التي تقوم بفتح التول حتى نعـبر بـسياراتنا. بـدت كصباح فضي لامع لا يمكنك أن تقاوم تلك الجاذبية التي تتدفق من عينيها. مدت يدها فلم أدرك ما الذي حصل معي فقمت بإطفاء محرك السيارة مباشرة. سألتها بكل أدب هل أنـت متزوجة فقالت إنها غير متزوجة ثم طلبت منها رقمها لكنها طلبت منـي أن أغـادر كـي لا أسبب أي زحمة في مدخل التول. خرجت من التول وبدأت أفكر في صـديقي جميـل الـذي ظن أن من يراسله في الفيس هي إحدى جيرانه فـذهب وتحـدث إلى البنـت و طلـب منهـا الزواج فوافقت وهو الآن يعيش حياته في سعادة لا توصف.

تمر لحظات في العمر لا يجب على المـرء أن يـتخلى عنهـا. أردت أن أعـود ولكـن كـان يتوجب علي أن أقطع عشرة كيلو مترات حتى أعود إلى البنت وفعلا عدت إليها مرة أخرى بوجه مبتسم وأنا احاول أن أتـذكر بعـض الكلـمات الإنجليزيـة حتـى أبـدو أكثـر لباقـة.

وبمجرد أن وصلت إليها طلبت منها الرقم مباشرة ولكنها رفضت. فخرجت من التول وعدت إليه مرة ثالثة ورابعة ولكنها هددتني باستدعاء الشرطة. فخرجت وأنا متمسك بشيء أشعر أنه سيعيد ترتيب حياتي ويبث ذلك الكم الهائل من الطمأنينة في قلبي. لا أظن أن أحدا سيعارض هذا الزواج من أهلي فأنا سأتزوج امرأة تعرف مسلمة وهذا كافي لإقناع أسرتي بذلك. فعدت إليها في المرة الخامسة وكلمتها مباشرة أنني لم يسبق لي أن تعرفت على أي فتاة في حياتي. فأنا جاد ولا أريد سوى الزواج منها. أخبرتها أن هنالك فرص لا تأتي مرتين في حياة المرء وأنني إذا غادرت بدون أخذ رقمها سأظل بقية العمر في حسرة. أخبرتها أنني لا أريد منها شيء سوى التواصل معها ثم مع أسرتها مباشرة. كنت أتحدث وأحاول استجماع ملكتي اللغوية في الإنجليزية وأخبرتها أنه لو أنني غير جاد ما قطعت عشرة كيلو مترات في كل مرة أعود اليها. فأعطتني الرقم في نهاية المطاف فخرجت من التول وكأنني خرجت إلى هذا العالم من جديد. خرجت ورفعت صوت المسجل على أغنية أبوبكر سالم وهو يردد "نادمته على الصفا" وأدركت أنني سأدخل مرحلة جديدة من عمري.

عدت إلى شقتي وكل ما يتبادر إلى ذهني هو أن أكلم جدي الذي له سلطة على الجميع لكي أقنعه حتى أتزوج. جدي لن يقتنع فهو يحبنا جميعا ويتمنى أن لا يفارقنا حتى لحظة واحدة. فكرت بعدها في عمي عادل كيف لي أن أخبره فهو سيفهمني وأنا متأكد أنه فعلا سيوافق ويمكن أن يقنع جدي. أبي وأمي سيرضخان لكلمة جدي والذي يعود له الأمر وهذا من واجبات الطاعة فأبي لا يجرؤ على مناقشة جدي.

بدأت أفكر في كل شيء و كل شيء بدأ بالتسرب إلى ذهني. فأنا وضعي في اليمن سيء لوجود ثأر بيني وبين خالي فهو يتهمني بقتل ابنه أحمد وهذا شيء لم يتبادر إلى ذهني مطلقا.

هل سأمضي حياتي هكذا دون أتكلم مع من أريد أن أتزوجها والتي لا أعرف اسمها حتى الآن! فكل ما أخذته منها هو رقم الهاتف فقط. جلال يتجول الآن في ذهني فهو امتنع عن الزواج خوفا من إدخال الحزن إلى قلب فتاة هو يدرك أنها لن تعيش معه طويلا. وأنا حياتي في اليمن غير مستقرة إطلاقا فكيف يمكنني أن أتزوج من هذه الفتاة التي تبدو متلألئة تاركا كل هذا الحمل الثقيل الذي يكاد أن يهد حيلي دون أن أخبرها.

دائما يتواجد هناك مأزق أخلاقي يجب أن تتعامل معه حتى تتمكن من تمضية بقية عمرك. يبدو أن المأزق الأخلاقي سوف يحتم علي أن لا أتزوج من هذه الفتاة التي لا تفارقني. ماذا أفعل مع هذه التي ألقت بأضوائها علي فاشتعل بي الوقت وتحرك كل راكد في خبايا الذاكرة. لغة عينيها أعادت إلي كل التفاصيل التي أتوق اليها. يا إلهي.. كيف أعبر من هذه الممرات الزلقة وأتنفس بحرية و سلام؟!

obeikandl.com

الفصل السادس

استيقظت اليوم التالي وأنا ما زلت أفكر وأحاول أن أضع نفسي في الجانب الإنساني حتى لا أظلم تلك الفتاة. أفكر في كل شيء يدور حولي ويتبادر إلى ذهني الكثير والكثير. ثمة ما يمكن تداوله للبحث عن ضروب الضعف في الجانب الإنساني ناهيك عن الإنسانية المفرطة التي تتجول بكامل لياقتها في قلوب البشر. أفكر أن الإنسان هو محور الحياة ولا يمكن بأي حال من الأحوال تجريده عن النزعة الاستثنائية في تعاطيه مع كل ما يدور حوله. امرأة تقعد كل يوم على قبر أبيها وتمارس هوايتها المفضلة في نفخ الناي وكأنها تبث نوع من الطمأنينة في روح والدها. هو رحل ولكن البصمة التي يتركها البعض هي ما تحول الأمور العادية إلى أمور استثنائية. الخيانة والسوء مازالت تتجول بكامل أناقتها مانحة نفسها صلاحية التجول كنزعة إنسانية متناسية أن هنالك جانب آخر أكثر إشراقا وطمأنينة وهي الشعور بماهية الوجود والطريق إلى قلوب الآخرين عن طريق كل ما يدور حولهم. أن تتعاطف مع طفل يبيع الماء في الشارع ولديه حنجرة ذهبية حصل على فرصة وتغيرت حياته يعد أمرا جيدا. وكذلك التعاطف مع أقدم جثة والتي وجدت في جبال الهمالايا مغطاة بطبقة من الجليد وعلى ظهر الجثة حربة. خمسة آلاف سنة والحربة ما زالت عالقة في ظهر ذلك المغدور يجعلك تفكر في الجانب السيء للبعض والذين يمشون على هذه الخطى وذلك لوجود علة نفسية ولا يمكن بأي حال من الأحول تحوير الأمر عن هذا المفهوم. لدينا حياة واحدة ولدى الكثيرون العديد من الأقنعة التي تتناسب مع كل موقف ولكن لا

يمكن لأحد أن يعرفك أكثر من نفسك. كنت أكلم نفسي قائلا "أنت هو المتواجد الفعلي في ذاتك ومن يعرف إلى أي مدى أنت ممتلئ بالإنسانية". كنت أؤمن أن التخاطر مع الذات هي دعوة للتأمل وتنقية النفس للتجول بإنسانية في طرق الحياة الملتوية لمنح هذا العالم المزيد من الحب والتسامح. هكذا يصبح لوجودك معنى وتصبح حياتك لها قيمة.

أتصلت بالبيت مباشرة ولم يكن كل شيء مطمئنا. فجدتي مريضة بسبب صمام القلب وقد عادت للتو من المشفى. لم أتحدث معهم بشيء بخصوص مليكتي كما كنت احب أن أسميها.

كلمت أمي فأخبرتني أن لا أعود لأن خالي مازال في مزاج سيء رغم مرور ستة أشهر على وفاة ابنه أحمد. هذا الشخص الذي كان المقرب إلى قلبي والذي كان مثالا للشهامة والكرم والنبل. كان أحمد يمر علي كلما دخل الى المدينة. كنت أحترمه كشخص ذي مبادئ رغم أن خالي سالم، وهو أخو امي من أبيها، كان من الشيوخ المعدودين بالأصابع في منطقتنا وهو ذو سلطة وذو بأس شديد. لا يتجول خالي سالم إلا ومرافقوه المسلحون يقبعون خلفه وكان لا يمشي منفردا إطلاقا. المشيخة في بلادنا هي أشبه بتكوين دولة صغيرة لأن الجميع كان يلجأ إلى خالي سالم في السراء والضراء وكان يقف مع الجميع. وإذا حدثت أي مشاكل فإن الدولة دائما تكون غائبة لأن خالي سالم كان يستمع إلى مشاكل الناس ويحلها بحكم مكانته الاجتماعية.

ذهبت ذات يوم للقرية وجلست أنا وأحمد ابن خالي في مجلسه فهو جلس للترحيب بي وذهب أبوه إلى قرية أخرى في دعوة من أهل القرية ليساعدهم على حل مشكلة هناك. أحمد كان يقول لي إنني صاحب فضل عليه لأنني أقنعته بأن يكمل مشواره التعليمية وقد أكمل الثانوية وكان ينوي أن يتوقف عن الدراسة والانخراط مع والده في أمور المشيخة فهو

وريث أبيه للمشيخة لأن خالي سالم يعتمد عليه كثيرا. أقنعته أن هذا الزمن هو زمن العلم وأن عليه أن يكمل تعليميه حتى لا يأتي شخص آخر يكون أعلى منه في مجتمعه. فأولاد الرعية الآن يدرسون وهذا كفيل بأن يتخرج منهم المهندس والطبيب وسيشعر حينها أن هنالك من هو أفضل منه على الأقل في مستوى التفكير الذاتي عند مقارنة نفسه مع الآخرين. اقتنع بأن يكمل جامعته ولكنه رحل هكذا فجأة وبدون سابق إنذار ووجدت نفسي أنا الملوم على كل شيء.

في اليوم التالي اتصل خالي يخبرنا أن احمد وجد مقتولا في غرفته وأنني الوحيد الذي كنت معه هناك وهذا يضعني تحت طائلة اللوم. الكل يعرف أنني ضد فكرة المشيخة والتجول بالأسلحة في القرى والمدن لأن هذا لا يليق بأي شخصية متحضرة. خالي لم يعد على علاقة جيدة معنا وأنا لم أوافق للذهاب إلى بيت خالي إلا لأن خالي لم يكن هناك. كان السبب وراء المشاكل التي حصلت بيننا وبين خالي هي أرضية ورثتها أمي من أبيها وخالي كان ينكر ذلك بدعوى أنه هو من أشترى الأرضية وأن الأرضية لا تدخل في تقسيم الورث. صرخت ذات يوم عليه أنني سأجعله يندم إذا ما حاول أخذ الأرضية من أمي. خالي شيخ من علية القوم ولا أحد يجرؤ حتى على الكلام معه. لذلك كانت الأرضية من نصيبه سواء شئنا أم أبينا. مازالت تلك الكلمات التي وجهتها إلى خالي في حالة غضب هي السبب الذي جعله يصمم على أني هو من نال من ابنه على غفلة.

أحمد كان كريما وكان يحاول مع أبيه من وقت إلى آخر بأن يترك الأرضية لنا فهو ليس بحاجة إليها. لكن مساحة الأرضية الشاسعة وموقعها المغري هو ما جعل خالي يتمسك بتلك الأرض.

اتصل خالي بالبيت وهو يهدد أنه سينهي حياتنا جميعا لأنني هو من نال من ابنه. ضغط

عليه الجميع باستدعاء الدولة. جاء البحث الجنائي وحقق في الأمر وكان التفسير الوحيد هو أنه كان ينظف سلاحه فانطلقت رصاصة ومات على اثرها.

كم كنت أود أن أرى أحمد قبل أن يتم دفنه فهو كان شخصية لا تقارن. كنت أذهب معه إلى السوق لنشتري بعض الاغراض وكان لا يبخل على أحد يمد يديه إليه. موقف واحد من أحمد يجعلك تدرك كم أنه شخصية استثنائية. ذات يوم خرجت معه ليلا وبينما كنا عائدين إلى البيت رأى مجنون في الشارع في ليالي الشتاء القارسة. كان ذلك المجنون ممسكا بجسده من شدة البرد فخلع جاكته وألبسه للمجنون. كان الجاكت ثمينا لكن أحمد كان أكرم من كل شيء. المواقف هي من تصنع الرجال وهي من تجعل المرء متميزا على أقرانه. كان ذا سلطة ونفوذ ولكنه كان مجدا في الدراسة وكان يرفض أي عون من المدرسيين فهو يريد أن يتميز بجهده.

أصر علي الجميع أن أغادر المدينة إلى صنعاء لأن خالي كان لا يأبه لفعل أي شيء. إذا كانت الدولة نفسها تلجأ إلى الحوار معه كما حصل عندما أخذوا عليه أرضية لأنها جاءت ضمن مخطط لأحد الشوارع. خالي سالم قام باختطاف بعض السواح كورقة ضغط على الدولة ولم يكن للدولة أي خيار سوى التفاوض معه و شراء الأرضية بالسعر الذي يراه خالي مناسبا.

لم يكن لأحد سلطة عليه لذلك أصر الجميع علي بالذهاب الى صنعاء. لا أخفي الأمر فأنا بريء وبنفس الوقت أصبحت أشعر بخوف يلازمني أينما رحلت. كنت أتحرك في الشارع وأشعر أنني لن أعود مجددا إلى أصدقائي. الخوف هو المفردة الوحيدة التي تنال من الإنسان وتجعله يشعر بالذل. أن تخاف معناه أن يرجف قلبك بشدة وتكاد عيونك أن تخرج من مكانها. أن تمشي بخطى متسارعة وتتلفت دائما لك ما يدور حولك. الخوف يقتات من

صلابة الانسان وقدرته على ممارسة حياته اليومية. كم أشتاق إلى تلك الطمأنينة والقدرة على الضحك على أتفه الأشياء.

تفاقم الوضع بي وأنا في صنعاء وبعد أكثر من شهرين أصبحت أرى الأشياء بشكل مختلف تماما. أصبح كل شيء حولي يوحي لي بأن هنالك مؤامرة تحاك حولي. صاحب التكسي الذي يسألني من أين أنت كنت أشك أنه يريد أن يضعني في مكان ما حتى يستطيع خالي النيل مني. صاحب البقالة الذي يسألني كيف حالك كنت أشعر أنه يضمر لي شيئا ما.

كنت أمشي في الشارع وكل شيء يدور حولي كنت أدونه في إطار المؤامرة. كنت متأكدا أن كل شيء يقودني إلى موت حتمي. حتى الأغاني التي كنت أشاهدها في التلفاز أصبحت محل شك بالنسبة لي.

صاحب البقالة كان يرحب بي دائما ويتذكر اسمي جيدا وهنا بدأت أتيقن أن خالي لن يتركني أعيش أكثر من ذلك. كل شيء يتهاوى وخطاي لم تعد تقوى على تحمل المزيد. صاحب الفندق الذي يسعل كلما رآني يوحي إلي بأنني في الأيام الأخيرة من عمري. كلما تجولت وجدت خيطا من خيوط المؤامرة التي يحيكها خالي لي.

أصبح كل شيء في حياتي يتلاشى كسهام الشمس في آخر لحظات حمرتها. ليال طويلة ونبض قلب بالكاد يعيد العافية إلى هذا الجسم المرهق. كم بوسع المرء أن يتحمل في ظل هذا الاضمحلال المستمر وكأن الحياة أصبحت مغامرة وليس بوسع المرء سوى المقامرة وتحمل المزيد من الماسي. ثمة ما يثقل الذاكرة التي لم تعد قادرة على غربلة الوقت فكل ما فيها يدعو إلى المزيد من الحزن والمزيد من التشظي.

أن تخاف وأن تتجول وأنت تشك حتى في ظلك هو المرحلة الأولى للجنون. لا شيء

أسوأ من النيل من صلابة المرء الداخلية وأن تشعر بأنك لم تعد تعيش في حدود زمنك. هو أن يجر دنياك من قدميها ويرميك كمنديل في مهب الرياح. لم تعد دنياك ضاجة بكل التطلعات بقدر حاجة المرء بأن يدرك كونه كإنسان له الحق في الحرية. الحرية التي تتسرب من دقات عقاربك وترميك خارج أسوارها. أنه الترهل والتشظي وخفقان القلب الذي يهز بدنك بأكمله. إنه الضعف الكامن في خبايا البشرية والذي لا يجدي معه تصنع الصلابة لأنك تدرك إلى أي مدى أصبحت في هامش الحياة.

كان هنالك حرب تدور رحاها في محيط صنعاء حيث ضرب الرصاص لا يتوقف وكان هنالك الحرب النفسية التي تدور بيني وبين أناي. كان الناس يمشون في الشوارع بخطى متسارعة وكنت أنا أيضا أمشي وأنا أهذي. لم أكن أعرف إلى أين أذهب لكني كنت أحاول أن لا أبقى وحيدا. الوحدة في وضع كهذا هي الدخول في متاهات من التفكير اللامتناهي وكل تفكير يقودك إلى جحيم أشد فتكا بالذات وهكذا.

اتصل عمي عادل وشرحت له أن خالي يضمر لي شيئا. استمع إلي جيدا وبعدها أصر علي أن أذهب إلى دكتور نفساني. بحثت عن دكتور وأنا غير مقتنع البته لكني ذهبت إليه وشرحت له أن كل شيء يدور حولي هو محل شك لي. أخبرني أنني في بداية مرحلة الاكتئاب وأحتاج إلى بعض الأدوية فقط. وفعلا بعد تناول أول قرص من الدواء أصبح كل شيء اعتيادي بالنسبة لي. أصبح صاحب البقالة الذي يسألني كيف حالك لا يثير شكوكي فهو يرحب بالجميع كما يفعل معي وسائق التكسي أيضا عندما يسألني إلى أين أريد الذهاب لا يثير مخاوفي فهذا هو السؤال الذي يسأله لأي شخص يصعد إلى التكسي. حتى صاحب الفندق الذي يسعل دائما عرفت أنه مصاب بالتهاب ذات الرئة. أن يستعيد المرء بعض من توازنه هو ما يحتاجه في مراحل كهذه. أن يعود جزئيا إلى جادة الوقت كفيل

بأن يبعث ذلك الضوء المندثر من خلف السحاب على خبايا روحك حتى تتمكن من النيل من ذلك العطب الذي بدأ يأكل أطراف روحك.

شهر واحد من العيش تحت سلطة الخوف كفيل بأن يجعلك تشعر بمعنى العذاب ومعنى الإرهاق الفكري الذي يقتات منك. المرء هو ما يفكر به، فكل شيء يتداوله ذهنك هو ما يصنع حاضرك ومستقبلك.

يبدو أن الحنين إلى الماضي سيظل القادح الأكثر تأثيرا على المرء للمضي قدما في حياته. أين تلك اللحظات التي يقظيها المرء مع صفوان ووليد والحديث الجذاب حول الأفلام وتجاذب النكات. يبدو أن الحياة تزداد تعقدا مع مرور الوقت وازدياد الوعي يفتح لك أبواب تزيحك عن البراءة. لم يعد هنالك أي نكتة تثير الضحك ولم يعد هنالك قدرة على القهقهة بقلب يملأه الفراغ والافتقار إلى الخبرة. أن تضحك معناه أنك لازالت تتماشى مع حياتك. في صنعاء كنت أحن حتى إلى الأستاذ خالد لأن موجة السخط كان يلازمها اضطهاد مؤقت تدرك أنك ستنجو منه. أما أن يكون خالك سالم يريد أن ينال من حياتك فهذا لم يكن في الحسبان. الهروب من الموت أشبه بالهروب من كابوس يظل يؤرقك طوال الليل وأنت لا تدرك هل هذا فعلا حقيقي أم أنك ستنجو في نهاية المطاف. لم يعد قلبي ذلك القلب الضاج بدنيا من الوله والعته الطفولي بقدر ما أصبح ذلك الألم الذي لم تقترف أي شيء حتى تستحقه. ألم تحظى به من دون مقابل في ظل الضوضاء المحيطة بك.

أصر عمي عادل وكذلك جميع أسرتي أن أسافر للدراسة في الخارج. كان عمي عادل هو الفضاء المفتوح الذي يبث الطمأنينة في قلبي. أخبرني أنه يجب علي أن أغادر اليمن وكانت جماليات كوالالمبور وفتنة ماليزيا هو الوجهة الأقرب إلى القلب. كان عمي عادل لا يقف عن مفاجأة الجميع إذ أخبرني أنه سيتكفل بدراستي هنا في ماليزيا.

هنا في ماليزيا أشعر بالطمأنينة بعيدا عن خالي سالم وبعيدا عن ضوضاء الحروب التي تقتات من البشر يوما بعد يوم. الناس في المطارات وفي الشوارع يبحثون عن طرق للعيش خارج اليمن. حتى أولئك الذين أبيضت رؤوسهم ما زالوا يتدافعون في المطارات بحثا عن حياة أخرى خارج أسوار اليمن. لم تعد للإنسانية أي معنى و لم تعد حياة الناس في مأمن. كان الناس يموتون نتيجة لأمراض أو نتيجة للموت المفاجئ، أما الآن فالناس يفقدون حياتهم نتيجة للحروب الدائرة في اليمن.

هنا في ماليزيا وجدت نفسي بعيدا عن الضوضاء وأحتاج إلى طرق لإيجاد الذات وستكون الدراسة هي الطريق الأول الذي يجب أن أدرسه وستكون مليكتي هي ذلك الممر الذي أتسرب منه إلى حياة لطالما وددت أن أعيشها.

obeikandl.com

الفصل السابع

أتصلت بعمي عادل صباح اليوم التالي مباشرة لأخبره أني وجدت الفتاة المناسبة وأني أود الزواج منها. سألني لماذا؟ فأجبته بأني لا أعرف. فهي كانت تستمع إلى أغنية كريستينا اجيرا و ريكي مارتن "لا أحد يريد أن يكون وحيدا". أنا أدرك أن الأغنية غير كافية ليقع المرء في حب فتاة ويريد أن يقضي ما تبقى من العمر معها. أخبرني أن الفرص في هذه الحياة قليلة وأني إذا شعرت بانجذاب نحوها فهذا غير كافي لأتزوجها. أحتاج إلى الخروج معها وتبادل الكلام لأرى إذا كنا نناسب بعضنا فنحن نتحدث عن عمر بأكمله سوف أقضيه مع فتاة ويجب أن يكون هنالك بعض الروابط على الأقل. أخبرني هو أيضا أنه تزوج هناك في الولايات المتحدة الأمريكية وأن لديه الآن ولد اسمه سام. أخبرني أنه تزوج لأنه وجد الفتاة التي تناسب حياته وليس بالضرورة أن يلجأ إلى جدي وجدتي في أمر هو يدرك أنه سيكون مصدر السعادة بالنسبة له.

أتصلت بها اليوم التالي واخبرتها أنني أريد أن أدعوها على العشاء في أحدى المطاعم. أخبرتني أنها تعرف مطعما جيدا وأنها سوف تأتي لتأخذني بسيارتها. سألتها عن اسمها فأخبرتني أنه نور عيني فتبسمت وقلت لنفسي يبدو أنك نور عيني أنا.

أخذتني بسيارتها ثم انطلقنا إلى أحد المطاعم المجاورة وسألتها العديد من الأسئلة. سألتها في بداية الأمر ما إذا كانت تدرس أو لا فأخبرتني أنها حاصلة على البكالوريوس في

علم النفس. سألتها بعدها لماذا أعطتني الرقم فقالت لي أنه من الممكن أن أكون الشخص المناسب لها. فيداي كانت ترتعشان وأنا أعطيها النقود لتفتح لي التول وأيضا صوتي كان يحشرج في كل مرة أسألها رقمها و هذا يدل على أني جاد فلو كنت زير نساء وأجيد اللعب على الفتيات لكان صوتي واثقا من التجارب التي خضتها مع الفتيات من قبل.

سألتني ماذا أحب فأخبرتها أني شغوف بالسرد وقراءة الروايات والأفلام التي تحاكي نمط حياة الإنسانية كفيلم "صمت الحملان". فأخبرتني أنها تحب هذا الفيلم أيضا وأن كثيرين معجبون بهذا الفيلم لأن كلاريس تمثل تلك العقدة التي تتخلل ذاكرة المرء من وقت لآخر. يوجد في حياة المرء أشياء نود تجاوزها مع مرور الوقت لذلك يظل ثغاء الحملان متواجدا في ذواتنا وليس بالضرورة أن يكون الحمل الذي يرزح في عقلية المرء هو استقامة البشرية. فالبشرية تظل متمسكة بجانب الشر في بعض أفرادها ولكن المرء يصل إلى مرحلة من النضوج الفكري والى مرحلة من تجاوز بعض المعيقات في الحياة حتى تكف الحملان عن الثغاء.

من خلال كلامها أدركت أنها هي الفتاة التي أنا أبحث عنها. فتاة فيها من رشاقة كاثرين هيجل وعيني ليف تايلور البريئتين. فيها من الذكاء الذي لا يوصف ومن التواضع ما يمكنها من تجاوز أي صغائر في حياة المرء. هي نور عيني فعلا وذلك الأفق الذي ستمتد فيه أجنحتي في فضاءات متعددة الألوان.

أخبرتها أنه يجب أن أكون صريحا معها حتى تستمر حياتنا وأخبرتها بقصتي مع خالي سالم. كان ردها ببرودة أن خالي سالم كان بمقدوره النيل مني وأنا ما زلت في اليمن ولكنه تجاوز عن ذلك لأنه يدرك أنني بعيد كل البعد عن حادثة مقتل ابنه. أخبرتني أن الأمور هذه تحتاج إلى الوقت حتى يتم تناسيها وأن أفضل شيء هو البقاء معها في ماليزيا لعدة

سنوات حتى يتناسى خالي سالم حادثة ابنه. بدأت تحدثني عن فرانكنشتاين وعن إمكانية وجود ذلك الوحش الكامن في نفس البشرية. فليس على المرء التخلي عن الذات وإطلاق الوحش الذاتي لأن فرانكنشتاين هو المسخ في هيئته ولكن الشر لا يمتلك تلك القوة الهائلة. في كثير من الأحيان يجب علينا أن نتحلى بمقولة سيوران أن الضعف والتسامح وجهان لعملة واحدة فهذا هو الأمر الواقع.

بالنسبة لي لا أفكر في العودة إلى اليمن في الوقت الراهن. يبدو أنني تعلقت بها كقط ضرير على يديها وجد النور ولكنها أخبرتني انني أبدو مشتت الذهن لأني لا أكون معها ذهنيا في معظم الحديث لذلك دعتني إلى رحلة إلى الشاطئ حتى أستعيد عافيتي الذهنية فليس للقلب المريض سوى السفر.

أخذتني في اليوم التالي إلى شاطئ نيلاي. شواطئ ماليزيا تمنحك فرصة للتفرد الذهني والتجول بانسجام كامل بين جسدك وروحك. كأنك تتدلى كبندول ساعة في الأفق والوقت يتآمر عليك ليوقظك من قلب اللحظات التي تعتبر خارج إيقاع الزمن. ثمة موج ورمل أبيض ونوارس تمارس هواية التحليق في فضاء استثنائي. شواطئ نيلاي توحي بنوع من التواجد الواقعي السحري واسمها يخبرك أن يومك سيكون ذات نكهة ميتافيزيقية. التحليق بالطائرة الشراعية واحدة من التجارب التي تستحق المقامرة بكل شيء. هواء عليل وأجنحة ترفع تردد الروح المعنوية لدى المرء وأحلام تتساقط كحبات الثلج على زوايا روحك. شواطئ نيلاي جعلتني أستعيد الانسجام الزمني بيني وبين روحي.

أتصلت بعمي عادل بعد أن عدت من الرحلة مباشرة وأخبرته أن هذه هي الفتاة التي أبحث عنها وأن حياتي ستكون استثنائية معها. أخبرني أنه سيتكفل بأمر إقناع جدي وجدتي وكذلك أمي وأبي. وفعلا تواصل معهم وأقنعهم أنه من الضروري أن أتزوج حتى

لا أظل وحيدا فالوحدة ستكون المصدر الوحيد لتفاقم حالتي النفسية.

أتصلت بي أمي لتسألني عن صحتي فأخبرتها أنني فعلا أريد الزواج. كان ردها هو أن أرتب للزواج في أقرب فرصة خوفا على صحتي. وأنها سوف تزورني مع أبي وكذلك جدي وجدتي. وفعلا أخبرت مليكتي أنه يمكننا أن نرتب لأمر الزواج فأخبرتني أنني أحتاج لأن أجد عملا في البداية حتى لا تواجهنا مشاكل مادية وهي سوف تبحث معي عن عمل مناسب لي. أخبرتني أن الفقراء وحدهم ومن اختبروا معاناة الحياة يمنحونا أكثر مما لديهم. الرفاهية تبلد الإحساس وتجعلك بعيدا عن جوانب الضعف والمعاناة الدائمة للآخرين. هناك من يسعى لبث الابتسامة في وجوه الآخرين رغم شحة الإمكانيات والهم الدائم لكسب قوة اليوم. أن تختبر الألم يجعلك تشعر بالفاقة التي يعيشها البشر في الجانب الآخر من الحياة. ثمة من يخلق التوازن في حياتنا بهدوء وثمة من يسعى ليس فقط من أجله بل أيضا من أجل الآخرين ومن أجل القيم الإنسانية التي لا تحتاج إلى كتب أو إلى منظرين بقدر ما تحتاج إلى رجوع إلى الذات. التعامل مع الآخر بالحسنى والجود ماديا مع الآخر يدركه الكثيرون بغض النظر عن الديانات والأعراق والهوية. هناك هوية إنسانية تتجول بهدوء وتجعلك دائما تبتسم في أي مكان كنت. أدركت أنها لا تلمح عن شرط أن أكون غنيا حتى تقبل الزواج بي. إنها تطفح بالإنسانية المحضة متجردة من كون المال هو جوهر الحياة.

بدأت في العمل في بقالة بأجرة يومية مقابل مبلغ زهيد في الأسبوع يكفي لأن أظل طوال الأسبوع منشغل بشيء ما وحتى أستطيع توفير احتياجاتي فمن الصعب أن أظل عالة على الآخرين. بعد عدة أيام جاء أهلي من اليمن فأمي باعت نصيبها من أرضية ورثتها حتى تتمكن من المجيء وتلبية احتياجات العرس.

أيضا جاء عمي عادل وأسرته من أمريكا. كان عمي عادل قد مهد لموضوع زواجه

قبل مجيئه لذلك لم يكن خبر زواجه يمثل صدمة لأهلي. جاءت زوجته وهي منقبة كدلالة على احترام مبادئ زوجها. أقمنا العرس وكان عمي عادل يريد أن يأخذ جدي وجدتي إلى أمريكا حتى تتمكن جدتي من معالجة صمام القلب الذي أتعبها كثيرا.

بعدها بأيام سافرت أمي وأبي عائدين إلى اليمن بينما تأخر جدي وجدتي وفعلا استطاع عمي عادل أن يحصل لهم على فيزا حتى تتمكن جدتي من الحصول على الرعاية الطبية المناسبة.

سافر الجميع وبقيت أنا ونور عيني التي ساعدتني على التسجيل في الجامعة والتوفيق بين عملي ودراستي. جدتي تبدو سعيدة جدا في الولايات المتحدة الأمريكية لأنها استطاعت أن تحصل على جدي كل الوقت فهو يلازمها دائما ويأخذها من حين إلى آخر إلى المسجد لأداء الصلوات هناك. عمي عادل رفض عودتهما إلى اليمن حتى تستقر الأوضاع. جدي أيضا رضخ للأمر الواقع رغم أنه كان يريد أن يقضي بقية عمره في القرية التي تمثل الذاكرة المبهمة لارتباطه بالحياة.

عدت إلى البيت وأنا مرهق من العمل وسألت نور عيني بأن تختار لنا فيلم نشاهده فقالت ما رأيك بفيلم (الخلاص من سجن شوشانك). فأخبرتها أن هذا الفيلم هو ما كنت أود ان أشاهده بالفعل ويبدو أنني سأحظي بحياة استثنائية في ظل هذا الاجتياح الذي لا تتهاود فيه نور عيني في إزاحة كل الأسوار بيني وبينها. حينها أدركت أن المرء يحتاج إلى أشياء تعمل كقادح للمضي في الحياة في مراحل العمر المختلفة.

الكاتب: عمرو عبداللطيف عبدالله ياسين

من مواليد ٠٦\١١\١٩٨٤

أكاديمي ومحاضر في قسم اللغة الانجليزية، جامعة اب، اليمن.

حاصل على بكالوريوس في الدراسات الانجليزية من جامعة إب – اليمن و تخرج بتقدير أمتياز مع مرتبة الشرف.

حاصل على ماجستير في الدراسات الانجليزية من جامعة يو كي إم- ماليزيا.

حاليا يحضر الدكتوراه في الدراسات الإنجليزية في جامعة يو كي إم- ماليزيا.

لديه كتابان في اللغة الإنجليزية: الكتاب الأول "مقدمة في علم اللغويات" وتم نشره عام ٢٠١٥ في أمازون. الكتاب الثاني "مدخل إلى تدريس و تعلم اللغة" و مازال تحت النشر. له أيضا ديوان شعري بالعربية الفصحى بعنوان "بوح على حاشية الغياب" مازال تحت الطبع.

لديه أيضا أبحاث في علم اللغة منشورة في مجلات علمية محكمة.

obeikandi.com